لايزال السد الى اليوم يتيم دهره، نصا وحيدا غريبا كأول عهده، ليس كمثله في أدبنا الحديث مغامرة. طلع علينا منذ سنين، وكل ما كتب الكاتب مفهوم للأدب ليس له سابق ولا كان له لاحق، مفهوم المأساة يستحيل معها الفن صراعا بين الخلق والعدم. فكان في الإبداع تجربة خارقة ومن تناهيه فيها شبيهة بأشهر ما يعرف في الغرب من «تجاريب الحدود»

محمود المسعدي : من كبار الأدباء العرب في العصر الحديث ورأس مدرسة فريدة في الكتابة. ولد بتازركة سنة 1911. من خريجي المدرسة الصادقية وجامعة الصوربون. مبرز في اللغة والآداب العربية. أشرف فيما بين 1943 و1947 على مجلة «المباحث». تقلد مسؤوليات عدة في الميدانين الوطني والنقابي. تولى بعد الاستقلال وزارة التربية الوطنية ثم وزارة الثقافة بتونس. أشهر مؤلفاته : مولد النسيان، حدث أبو هريرة.



السد
محمود المسعدي

يون المعاصرة

محمود المسعدي

السد

م توفيق بكار



ر الجنوب للنشر ـ تونس

97 نهج فلسطين - 1002 - تونس
ISBN : 9973 - 703 - 19 - 7

من ديجور ونور صفحات...

واطلّ الصباح...
من وراء القرون

الشابي

لا يزال «السدّ» إلى اليوم يتيم دهره، نصا وحيدا غريبا كأول عهده ليس كمثله في أدبنا الحديث مغامرة. طلع علينا منذ سنين، وكل ما كتب الكاتب، بمفهوم للأدب ليس له سابق ولا كان له لاحق، مفهوم المأساة يستحيل معها الفن صراعا بين الخلق والعدم. فكان في الإبداع تجربة خارقة ومن تناهيه فيها شبيهة بأشهر ما يعرف في الغرب من «تجاريب الحدود». تروم فيه الكتابة أن تتقصّى بالفكر أبعادها الى منقطعها من التخوم لتعلم ما معناها، آخر الأمر، في الوجود فتمتحن ما في الخلق جدواها، حتى إذا بلغت منها الى تلك المشارف النائية ولم تر لذاتها من حقيقة سوى أنها بالية ارتدت إلى نفسها تتجرّد من سائر التعلاّت التي بها تتذرّع لتقابل عارية، إلاّ من عشق الحياة، مماتها. فلم يعد لديها من مبرر لوجودها إلاّ يقينها بهلاكها ولا عاد لها في الخلق من وازع إلاّ غلاب فنائها ثأراً للإنسان من عطب الزمان وإشهادا على توقه الحارق إلى الأبد المستحيل. تدرك بحدّة البصيرة، وفي حركة واحدة، حتم حدودها وحلمها بالخلود، قد تموت غدا وتودّ أن تعيش أبدا. وهي مأساتها لافكاك لها منها، تعيها وبلون قاس من السخر تعانيها في ذاتها منتهية قهرا وأملا لامتناهية. ومن وعيها ذاك لموتها وشدة ما بها من الشوق الى المدى تولّد همة لها في الانشاء عالية. فتحمل نفسها متوترة على أقصى الجهد عسى أن يسخو البذل منها ويزكو. وما أقدمت كتابة قطّ على مواجهة فنائها إلا حاولت فوق الطاقة، من فرط التحدي، أن تبدع في ما تنشئه إبداعا. فإذ قد أدركت في حياتها موتها جعلت من الموت حياتها. يربو لديها حسّها بالوجود على قدر شعورها بزوالها. ولكن أنكى مأساتها عليها أنها، مهما تفنّنت، في ظنها، مدافعة للبلى، لا تدري سلفا ما قد يكون مصيرها : قرنا من الحياة أو بعض يوم أو ما بينهما. وماهي لبعد المرام بالتي ترضى بأنصاف الحلول، فإمّا كل الإمكان وإلاّ لا كانت. تجرأ فتلقي بنفسها

مقامرة في مثل رمية بكعاب الزهر وليكن ما يكون تمام الخسران أو فوز مبين... إلى حين، تعلم ذلك. ولا عليها إن خسرت كل شيء فما لم يكن أبد فكل ما دونه موت ولو بعد غدٍ. فالأمر من قبل ميؤوس منه وإنما للشرف كانت، ولا بدّ، المحاولة. كشأن «الملك الضليل» إذ قال طامحا :

... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا.

وما أكثر ما تهاوت صحف كالأوراق ذابلة جرفتها رياح العدم في ما جرفت و...

صاح هذى قبورها تملأ الرحب...

وإن ربحت فقصارها من الدوام، ولا سبيل إلى الخلود، أن تؤخر ساعة بعد ساعة وفاتها. يكفيها للدهر عنادا أن يطول فيه وجودها. هو الغنم، إن كان، أبدا بعيد المنال قصير المدى، يعزّ المجد غير أنه – مادام – في عبور، بقاء في انقضاء ولا مناص من المرور.

تلك تجربة «السدّ»، مغامرة الأقاصي، وناهيك بها من تجربة لا يقوى عليها من الأدباء إلاّ ذوو البأس رواد الآفاق النائية. وقد خاضها بجمعه روحا وجسما وقلبا وقالبا، بمعنى ما يحكى من الفكر ولفظ ما ينشيء من الفنّ أفنستغرب بعد هذا أن يظل منها في نوعه فريدا ؟ فكم لنا اليوم من كتابة لا تحدثنا بموضوعها، إن كان ذا خطر، إلاّ وقد انسلّت منه متفصية كأنها لا يعنيها مما تقوله فيه شيء : تقصّ فتزجّ بأشخاصها في أشق أزمات الشكّ والحيرة ولا ترتاب في أمرها ولا هي على حالها تقلق، «تمرّ بها الأبطال كلمى هزيمة» وهي عنهم في لهو، أو في زهو، تغنّي «يا للنّى». تحسب عن غرّة أو غرور أنها فوق المعمعة وخارج «الطرح» وما كذلك في الدنيا إلاّ الأموات. لا «كالسدّ» كتابة إذ جسرت على علاج معضلة الخلق، موضوعا لها، بادرت الى نفسها تضعها في صلب القضية أو إلى القضية تجعلها من صميم كيانها. فإذا ساءلت الكون في ذاتها عن حقيقته ساءلت ذاتها عن حقيقتها في الكون وبنفس «القسوة لا تلين». ومن أطرف طرائفها أنها قد أقبلت على حقيقتها تختبرها من الداخل قبل الخارج وطردا وعكسا على نحو من الجدل الباطن ليس له هفوت. فامتحنت نصّها على محكّ ما تقصّ وأخذت معنى ما تقوله في الحكاية بحكم الكيف الذي تقول به الحكاية، في مخاطرة بالذات شاملة تراهن فيها على كلّها بكلّها.

يلعب هذا الكتاب، لو نعلم، لعبا مع نفسه خفيًا قصيًا ساخرا هو بلا مراء من سرّ فتنته. فبعضه مرآة لبعضه ماكرة ترجّع إليه صورته في كلّ مرّة معكوسة المعالم فلا هو هو ولا هو غيره بل الشيء وضدّه يتناوبان غدواً ورواحا. وهذا في الأصل شيء من ذات الأدب إذ لتآليفه بالكيان من دالّها ومدلولها وجهان يردّ أحدها إلى الآخر، أو يردّ عليه، بلا ابتداء ولا انتهاء ولا أول ولا ثان. هما الشكل والمعنى في حوارهما جيئة وذهابا، يتداعيان فيتجاوبان وقد يتفقان أو يفترقان فيكون اللحام والوحدة أو الفصام والغربة باختلاف غرض الكتاب في ما يؤلفون. والكلام، طبعا، على كبارهم لا على الصغار، فهؤلاء يفكرون في ما يقولون وأولئك لا يعلمون ما يفعلون. ومزيّة السدّ، وكاتبه من أكبر الكبار، أنه قد مضى في هذا الأمر إلى منتهاه فجعله تقلّبا متهكّما بين حقيقة وبطلان يتبادلان الموقع على الدوام من طرف إلى طرف فإذا قفا الوجه وجه قفاه الوجه هكذا دواليك في حلقة مقفلة. فيدور الكتاب على محوره هازئا نصفه بنصفه ينفيه ويثبته ويهدّه ويشدّه في جدل لا ينتهي من السلب والايجاب.

في هذه اللعبة ندخل منذ البدء من باب العنوان. «فالسدّ» اسم مفرد ومسمّاه في الكتاب شيئان : هذا الذي في وادي الخرافة يُشاد بالصلب الصوّان وذاك الذي على أرض التاريخ ينحت من صمّ الكلام. سدّان هو: صرح يرفع حجارة فوق حجارة ونصّ يرصف عبارة بعد عبارة. وفاعلان : بطل «إنسان» وكاتب فنّان، غيلان والمسعدي. وسيّان هما في المغامرة كلاهما رجل يدحض عنه العدم بالفعل الخلاّق لعله يثبت في الوجود ذاته حتى لهذا لذاك صورة منه إليه؛ وهل تقول حكاية الإنشاء في الكتاب شيئا غير ما يقوله إنشاء الحكاية ؟ يردد الشكل في مبناه صدى معناه ويبني الخطاب عن نفسه بما يمثله من الأحداث في الخبر. أجل ليست مأساة الخلق ههنا من أمر القصة فحسب : غيلان وسدّه وصاهباء وإنما هي أيضا، وقبلُ، من أمر الكتابة : المسعدي ونصّه والعالم. أفلم يعلن فينا منذ نحو خمسين عاما أن «الأدب مأساة أولا يكون..»[1] ولكنّها عبارة لاكتها الألسن ولم تدرك العقول منها إلاّ ظاهرها. فظنّ بالمأساة في الأدب مضمونه من الفكر دون معموله من الفنّ، مقول قوله لا قوله للمقول. غاب عن الأذهان أن المأساة تلك هي الكتابة ذاتها ومن حيث المعاطاة قبل المفاد. ولكنّ «السدّ» اليوم يأبى علينا أن نصرّ على الخطإ فيقتضينا أن ننظر فيه إلى الخلق على الوجهين : سدّا يرفع ونصّا يبدع، ومن

1) — مجلة «المباحث» عدد مارس 1945.

ناحية هذا وذاك من البطلين : غيلان في عالم الخيال يشيّد صرحه، والمسعدي في دنيا الحقيقة يؤلف كتابه. هذا التوازي بينهما موقفاً بموقف، وهذا التشابه فعالا بفعال.

واعجب الآن – واضحك – لهذه المفارقة الجادّة العابثة التي تشق الكتاب من وسطه ومعها تتحرّك الصور فيبدأ الانقلاب.

سدّ النصّ لايزال ينهار في القصة بنيانه ونصّ السدّ قائم فينا كأنه الطود ليس ينهار. بعد عشرة شهور، في زمن الحكاية، هدم سور مبناه الحديد والجلاميد، وما هدم بعد ستة وثلاثين عاما من عمر هذا القرن الهائج متن قوامه اللفظ. قد ثبتته في واقعنا، إلى اليوم، لغة كأن حروفها قطع من الصفا. هو السدّ «الصلد الصَّلْدُ» صامد لقوارع الحدثان لا الآخر دكته الزوابع الرعد فشتته في الجوّ شظايا. ولكنه، وهذا هزء، إذ هدّته الربّة في الخرافة شدّته في النصّ قوة الإنشاء، تنفضه صاهباء في السماء هباء فيظل حطامه معلقا في الهواء بحبال اللفظ إلى صخر الكتابة. فمعجزة الفنّ بسحر الكلام تمنعه، وقد نسف فطار، أن تساقط أنقاضه في هوة الدثار. بل في حال معاد من الكون والفساد تمسكه متدليا على مدى السنين في الفضاء لا هو ثابت قائم ولا هو خائر واقع، دائم الرفع دائم الخفض. كذلك يفعل «السدّ»، ساخرا، بالسدّ، يبنيه ثمّ يفنيه وبين هذا وذاك يبقيه متعاليا لايدوم متهاويا لا يزول.

ولا يلبث السدّ بدوره أن ينقلب بطلانه على نصّه الحامل، هزءا بهزء، فيهدده من تحت بتقويض أركانه، للتلازم الموجود بينهما بمقتضى منطق الفكرة. فإذا كان خلق غيلان من «وهم القدرة» وأوهى من السراب، منشأه غرور الإنسان ومآله، لا مفرّ، الخراب، فكيف كتابة الفنّان وهي خلق وهو إنسان ؟ إنهما فعلان حكمهما في العقل واحد. يعدي السدّ بمعناه «السدّ» فيسري الداء من الخرافة الى الكتابة، كان «السوس» في الأحشاء فها قد بات في العظام. فإذا النصّ هو أيضا منخور الكيان بعلّة الفناء، وجود طيّه العدم كثمرة حشوها الدود فالثمرة إلى التعفّن...» والكاتب أوعى الناس لهذه الحقيقة القاتلة، يقول لقارئه في مقدمة قصة أبي هريرة، ويصح كلامه في «السدّ» :

«الآن وقد انتهيت وطرحت بهذه الصحائف الضعيفة الناحلة إليك، أنظر فلا أرى غير العدم..

ستذهب هذه الصحائف فتمضي وتمّحي. فهي أنفاسي قد ذهبت ولها ريح ما

يبلى ويأكله الدود. كجميع الذين كتبوا من قبل، يظنون أنهم خلّدوا وأماتوا الموت وما خلّدوا...»

فهي إذن :

«لِـــــدوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب فكلكم يصيـــر إلى تبـــاب

كما قال شاعر الموت أبو العتاهية ؟ فما الذي قد يحمي «السدّ» من أن يجرفه السدّ معه في سقوطه فيذهبا في غياهب العدم سواء ؟ مالذي قد يحصّن مبناه معناه الذي أوشك أن يهزّه من دعائمه... على شرط أن يكون القارئ من رهافة الحسّ بحيث يسمع الدعاء يأتيه من أعماق الكتابة :

«وإنّ هذا الكتاب لكالصوت أو كالصيحة في واد به حاجة إلى ما يردد صداه ويجري فيه خلجة الحياة...».

وكيف لا يسمع القارئ، إن كان حيّا، من «السدّ» هذا النداء وهو في الفنّ آية، وكيف إذا سمع لا يرجّع الصدى ؟ أو ليس من شأن مأساة غيلان أن تذكي فيه حبّ التصدي لقوى الدمار وروح التحدي ؟ وإلا كان وجوده، هو، عبثا، ومجهوده، هو، باطلا. ولن يكفر «بإنجيل صاهباء» حتى يسرع إلى «كتاب» المسعدي بتعهده بالرعاية. يصونه ليديمه، ويديمه ليقيم به معناه، هو، في الحياة إنسانا بنّاء. صارت القضية قضيته، والمأساة، إن صحت، مأساته وعليه أن يدحض عنه العدم بالفعل الخلاّق، خلق هذا النصّ مكررا بتجديد القراءة. فيكذب معنى انهيار السدّ في الخرافة بتثبيت لفظ «السدّ» من فن الكتابة. كانت الحكاية همت بنصها أن تهدّ من الأسس كيانه فإذا هي من حيث تنسفه تسعفه. وكذلك يفعل السدّ، ساخرا، «بالسدّ»، يهدمه ويدعمه فلا هو قائما يدوم ولا هو حائلا يزول، معلق هو نفسه بين فناء وبقاء، بحبال المعنى الى شمم القراء. وتكتمل من اللعبة دورتها فينغلق الكتاب على نفسه منتهيا... مبتدئا، جدلا لا ينقطع من الهدم والبناء...

وصورة كأبلغ ما يكون من أدب الفواجع على نحو ما وصف شاعر فرنسا «بول كلوديل» في نكتة له تندر بها مازحا ولم يقل إلاّ حقًّا : «مثل الشعر كمثل المدفع، يأخذ ثغرة وتبني حولها». فالمآسي، من شعر ونثر، نصوص عمارها الدثار، تقف على شفا حرف هار من الفناء تطوق منه بقوة الفنّ فوهة الفراغ، فهي موجود على

معدوم، شاهد بالغياب، تمثّل بملء حضورها هوة الفقدان. وتلك مفارقتها الكبرى عليها تجري تباعا وفيها روعتها كلها. فمن عصف البلى بالكائنات تستمدّ لها قوّة وتزداد بقدر الاطلال في نفسها على غور الفناء عظمة وسموا. أجمل جمالها وأجلّ جلالها في هول ما تنعاه إلينا من ويل الدمار، وكلّ ملائها من خلاء. كالنصب العتيد لا يتقمص في مصبوب نحاسه الصلب إلاّ خيالا واهيا من عابر في الزمان غابر، بل كالضريح المهيب لا يشخّص في مصقول رخامه الصلد إلاّ ما في حفرته من رميم لسالك في الوجود هالك. ألا إن النّصّ المأسوي لكالقصيد الجاهلي وقوف على الأطلال وبكاء من ذكرى حبيب ومنزل، من ذكرى غيلان وسدّ. «وكم من شهقات يقتضيها لحن يعزف على أوتار القيتار» هكذا تغنّى «أرغون» في شعره وردّد من بعده الشادي. وليس كحسّ الموت في الفنّ خلاّقا للروائع ! لأنه حسّ الحياة في أشدّ العنفوان.

رسم المسعدي تصميم «سدّه» كالمهندس بالمسطرة والبركار. كل شيء فيه مقدّر بدقة الأرقام : الأحجام والنسب والمسافات. ومن قال إن الفنّ والعلم لا يجتمعان ؟ فبعقل رياضيّ، عن وعي واضح أو في غمرة الخلق، خطّ هذا الفنّان صورة نصه فردّه إلى عدد من المساحات تحكمها سلسلة من المعادلات. ووحدة الحساب هي «المنظر» ما دام المسرح فنّا قوامه التمثيل لا السرد، لحاجة المشاهدة وإن على ركح الكتاب لا في قاعة العرض وبالقراءة لا بالعيان. وفي المناظر يعطينا الكاتب أن نرى ما ينبغي أن نرى من فصول روايته. ففي كل لوحة منها لمحة من حركة البطل في المكان عبر الزمان، من غيلان في «وهد القدر» يجاهد والوقت يمرّ، من مصير إنسان بين الأرض والسماء في ساعة ما من دورة الأفلاك. من هنا يبدأ البناء، والمسعدي فيه على مذهب «الكلاسيكيين» من كتاب المسرح الغربي. شأنه فيه الاقتصاد في المادة كالفرنسي «راسين» (1). فمن كلا شيء صنع مثله كلّ شيء في نصه هذا الممتلئ. وأراده، وفق اختياره المبدئي، صافي الخطوط واضح الأقسام، لا يُشعّبه تفريع ولا تثقله زخرفة، أشكالا من الهندسة ناصعة تعيد نفسها مؤتلفة

1) سئل المسعدي : «أي الأدباء القدماء والمحدثين تؤثرون ؟» - فكان من جوابه - وسنعود إليه مرارا : «... وراسين من الفرنسيين...» - تأصيلا لكيان ص 42 -

مختلفة على نسق محكم من التعادل والتقابل..

فالحادثة في جوهرها بسيطة : حركة تعارضها حركة، إرادة الانسان ومشيئة الربّة، ضدّان يصطرعان والسدّ بينهما يقوم وينهدّ والغلبة فيه «للاقدار». والمكان كالواحد يتكرر ولا يكاد يتغير : جبل يواجهه جبل، في صقع ما من أصقاع الخراف، وفي الغور بينهما الوادي أجدب أجرد، وفي منقطع الوادي العين تجري ماء، موضع السدّ موضوع الصراع. والزمان، على طوله في الخرافة، مختزل اختزالا في اختزال : شهور عشرة، عمر السدّ، في أيام أربعة، مدى النص، يوم القدوم ويوم الشروع ويوم الصدام ويوم الدمار. وكل يوم في ساعتين من ليل و/أو من نهار. وهي اللحظات الحاسمة في مجرى المغامرة قد ارتكز عليها «السدّ» ارتكازا بملء كيانه المكتنز. وقد شخصتها في النصّ مناظره الثمانية ثابتة في المكان متحولة في الزمان، وعليه المدار. إذ الفاجعة في الأدب كما كان يحبّ أن يردد علينا في مدرج «دي كارت» بالصربون ذاك الاستاذ من أعلامها، هي «مضي الزمان حتما» إلى غاية مرسومة. فللمأساة في المسرح ساعة كالساعة آتية لا ريب فيها، وللسدّ في نصّه أجل مكتوب هو متنهاه إليه لا محالة. وكل الفنّ في تدبير المسار الى ذلك الموعد المضروب. فتساوقت المناظر في الكتاب أزواجا مقترنة في الأوان متناقضة المعاني تتردّدُ بانتظام بين البطلين في كل يوم ساعة بساعة، جولة لغيلان وجولة لصاهباء، وهذا يشيد وتلك تبيد : غزا أرضها يريد سدّا فأنذرته، وشرع فيه فتوعدته، وأعلى صرحه فأحرقته، وأتمّ بنيانه فخربته. فثمان من المناظر مصرّعة كالأبيات في النظم شطرا بشطر، صدورها للإنسان وأعجازها للربّة، يفتتح هو في كل مرّة، وهي في كل مرّة تختتم، ولم يقض له بغير الشروع. رُكّبت اللوحات كأنها من الشعر «رباعية» على قافيتين، صوتا بصوت : لحن البياض ولحن السواد، سدّ وهدم وماء ونار. كنه الصياغة شعري وما أدراك ما الشعر في «السدّ» ومن صميم التشكيل ينبع ! على هذا النسق من التراوح الموزون المقفى وعبر اللحظات الثماني مرت حركة المأساة صعودا إلى قمتها كالقصيد وله طوران بل، والشعر غناء، كالنشيد وله دوران : دور التمهيد على يومين متصلين، يوم النزول ويوم البدء، ودور التشديد على يومي منفصلين، يوم القراع ويوم الهلاك. وفيما بينهما قد اختلفت الحركة في الوتيرة من ريث إلى عجل. إلى نصف المسافة سارت كالفاتحة في الموسيقى، بطيئة تستجمع على مهل عناصر الصراع، فحددت ميدانه، منقطع الوادي، وعينت

رهانه، السدّ، ورتّبت الفريقين المتقابلين على خطّ المواجهة : من ههنا غيلان ومن معه، ميمونة صاحبته وجيشه من البنائين، ومن ههناك صاهباء ومن إليها، نبيها وقومها، أهل الوادي. وقد تعاقبا على الساحة صولة بصولة : غيلان فسدنة «بيت النار» فغيلان فالجواري من الأحجار. وتناديا بالنفار قولة بقولة : تحدّ بتحذير وتحدّ بتهديد، والسدّ يخرج رويدا رويدا من رأس صاحبه، حلما في مهجته، إلى سواعد العمّال وآلاتهم يبدؤون بناءه. ومن نصف المسافة تسارعت الأحداث فجأة. فهرولت إيغالا في المعركة ثمّ «برولت» إيذانا بالختام. وثبت في الزمان فوق شهور ستة طوتها طيّا إلى يوم الصدام، ثم فوق شهور أربعة طوته طيّا إلى يوم الدمار. فتناوب الخصمان على الطّعان ضربة بضربة والسدّ بينهما من ضدّ الى ضدّ يقوم تارة وينحطّ. فما أن وضع أسّه حتّى ارتفع صرحه، وإذ قد علا هوى رأسه، وإذ قد هدّ منه تناهى بنيانه، واكتمل فإذا هو حطام. و«لكل شيء إذا ما تمّ نقصان». وغيلان مع سدّه يختلف به الحال من نصر إلى خسر، ومن يأس الى بأس، ومن عتي إلى اندحار.

أربعة أيام كفت في النصّ عن الشهور العشرة، يومان في التناوش بالكلام والسدّ من حال القدرة الى أول الفعل، والزمان في إقبال نورًا بعد الظلام، فجر الغداة بعد عشي البارحة؛ ويومان في قعقعة الصدام والسدّ بين رفع وخفض، والزمان قد ولّى مدبرا، بعد اقبال، عن الضياء الى القتام، صباحا يعقبه مساء وظهرا يتلوه مغيب. كان الأمر في أوله على ما يريد الإنسان فصار في آخره على ما شاءت الربّة، بدأ وفاتحته ملحمة وانتهى وخاتمته المأساة. فغلبت صاهباء وانهزم غيلان.

هما الدوران الكبيران في هذا النشيد العتيد.

وأيامه من عهد الخراف، مطلقة في الزمان، لا تاريخ لها إلا اختلاف الليل والنهار بتحرك الاكوان. قد عدّلت ساعتها على إيقاع أولي، تنفّس الدنيا مدّا وزجراً من ظلام وضياء. فالتوقيت بالشمس طلوعا بعد غياب و غيابا بعد طلوع : عشي وفجر، وصبح وليل، وزوال وغروب. ساعات متقابلة من النور والديجور لأن الصراع على سدّ صراع بين النور والديجور.

فأصدق ساعات غيلان، وهو الإنسان الفاتح، النهار. في الفجر أصل صرحه، وفي الصباح أعلى علاه وعند الزوال شارف به كما له، صعودا وإياه مع الشمس في

مدارج الضياء. أنشأه والشمس ناشئة، وأطلعه والشمس طالعة فلمّا سطعت في كبد السماء سطع شامخا في العلياء..

والليل أحق ساعات صاهباء، وهي الداهية الربّة، ليلة القدوم وليلة الصدام. في الأولى أصدرت حكمها على لسان السدنة «يسألون للماء النار والسدود الدمار وليدي غيلان أن تتبّا»، وفي الثانية، وقد نفذت أمرها فصعقت رأس صرحه بنارها وأحرقت يده، ألقت به في قرار الخيبة مغلوبا ولا ولي ولا نصير. وزادته فنازعته، عابثة، من وقته ساعتين : فجر البداية وصبح الإعلاء. في ضياء الشمس بازغة افتتح البناء مبشرا بشروق عهده السعيد، فعجلت إليه بجنّيّاتها من الحجارة تسفّه أحلامه هازئة من «توهم القوة كيف يكون»، وكأنها قد حولت نوره من أوله سرابا، وسده من أسه خرابا. وفي وضح الضحى أقام صرحه ولا يشك في أن شمسه قد أطلت، بعد طول جهاد، على البشر تنير عصرهم الجديد وما هي إلاّ برهة حتّى بدّدت بنارها أوهامه. فقلبت صبحه ظلاما وأعلى سدّه حطاما.

وعلى عنف هذا التصدي أجاب بمزيد العناد فنازعها، مستخفًا، آخر لحظة من ساعتها ليلة الصدام. حسبت أنّها قهرته فطرحته على الأرض طرحا ليس له بعده قيامة وإذا هو من مصرعه يهبّ واقفا ملء القامة وأشدّ ما يكون إصرارا ومن مبارى يأتيه المدد. كذّب ظنونها فردّ على التلف بالصلف وفرى جوف ليلها من وقدة العزم بشعاع صارم. وبقي من الزمان العشيان، يوم حلّ ويوم ارتحل. والعشيّ، في آخره، ساعة مخضرمة من ضيائه وظلامها، حدّ بينهما عليه يصطرعان. نزل الجبل والشمس غاربة تحديا عن كثب منه لها في زمانها، وإيمانا بأنها آخر ليلة من سلطانها وفي الغد بعد ظلامها ينبثق فجر الإنسان. فأماتت في صدره صوته تشعره أنها ربّة المكان وإليها أمر الزمان تصرفه كما تشاء، لها عليه لا له عليها. وأبى في يوم الفصل إلاّ أن توضع آخر حجرة من السدّ في السدّ والشمس في غروبها تنتصب «كالطؤوس الأحمق» فوق ذبابة الجبل، رأس صاهباء، وأخذ يهلّل للنصر القريب وكلّه يقين بأنه «قد بدأ نهار وانتهى نهار». انقرضت دولتها وجاءت دولته. فأرسلت عليه عناصرها متألبة تعصف به وبسدّه. وعمّ الظلام... إلا نورا ضئيلا لاح له في الافق البعيد يوحي بصباح جديد... قد يعقبه ليل آخر ؟ فباختلاف الساعات كانت التارات سجالا بين الضياء والظلام، وهو إيقاعها المفتنّ من الزمان، أعاريضها التي رتلت

المأساة عليها فصولها.

وقد استدار الزمان في السدّ عوداً على بدء، من العشي إلى العشي وفي انغلاقه ذاك على نفسه يرسم صورة الفاجعة تطبق على البطل. فلأن قصته مأساة كانت ساعة البداية ساعة النهاية، غروبا قبل الغروب. فكأن السدّ قد انهدم ولمّا يُبْنَ، انهار قبل أن يقوم، فكان في تعاليه تهاويه و تمامه حطامه. «ابتدأ الرحيل وقد انتهى الطريق» كما يقول الفيلسوف «لوكتش». فجاء «السدّ» على نموذج التركيب في فواجع اليونان القدامى، على مثال «الآلة الجهنمية» كما سمّاها من بعدهم، الأديب الفرنسي «جان كوكتو» في بعض ما كتب. وهي جهاز رهيب خفي الدواليب تعده آلهتهم لمن شاءت هلاكه من البشر. تدبرها في سرّ غيبها من علم حيلها وتنصبها لضحاياها كالفخّ تسوقهم إليه سوقا من حيث لا يحتسبون. تشعرهم أولا بما قدّر لهم فيأبون قضاءها متمردين ويجتهدون في الإفلات منه اجتهادا ثمّ تخدعهم فتمهلهم حتى إذا آمنوا بالنجاة وجاء الموعد نفذت فيهم حكمها صارما. فينغلق عليهم الفخّ بلا رحمة في اللحظة التي يطمئنون فيها إلى السلامة. ذالك ما صنعته بغيلان صاهباء. حذّرته فلم يسمع وأرسلت إليه النواذر على مدى ستة شهور فلم يتعظ فضربته ضربة أولى ثمّ، ولم يرتدع، كفت عنه، ختلا، مدة أربعة أشهر حتى توهّم أنه، كما كانت قهرته وعزلته عن أصحابه وحيدا، قهرها وعزلها عن قومها وحيدة، وقد سخّر أهل الوادي وعلى رأسهم النبيّ في تشييد صرحه، وإنما «غشوه» لما أرادت به من «... غاية قسوة». وفي الأجل المكتوب، وقد هتف «بالفوز والفلاح» انزلت به ضربتها قاصمة. فكأنه في فاجعته من أبطال اليونان. فكما قضت الآلهة على «أوديب» أن يقتل أباه ويتزوج أمّه، كذلك حكمت صاهباء على سدّ غيلان أن ينهار. وكان لابدّ «لأوديب» بعد تلبيس، أن يقتل أباه ويتزوج أمّه، فكان لابدّ لسدّ غيلان بعد، خدعة أن ينهار. مغرق في الإغريقية هذا «السدّ» على عروبته، تلوح في أفقه بعض الوجوه من آباء التراجيديا الأولين[1]. وأمّا لماذا مأساة اليونان، عباد الأصنام في بيئة كبيئتنا تدين بالاسلام وتنفي بعمق الايمان كل مأساة فسؤال خطير قد يجد جوابه عند الدلالة في الإبان.

وكتركيب الأحداث، في الإحكام، ترتيب الأشخاص.

وأهمهم خمسة : رجل وسط مربع من النساء : صاهباء، إلهة من الأوثان،

1)- «... واسخيلوس وأوريبيد» من جواب المسعدي المذكور. المرجع السابق.

وميمونة، امراة من الإنس، وميارى، طيف من الخيال، والأرض، أنثى على المجاز. والأولى من صخر، والثانية من لحم، والثالثة من حلم، والرابعة من رغام. وجوه سافرة أو مقنعة من العناصر الأربعة : «فذات الرواعد» نار كامنة في صوانها أو ساخنة مهلكة،وذات الرواء ماء، وذات الهفهفة هواء، وذات الغبار تراب. فإذا تحرك الإنسان في «السدّ» تـ... من أوائلها الموجودات. فكأنما الدنيا بأسرها من أصولها تهتز لفعله، على ما تقتضي أجواء الخراف من تضخيم البطولات. وغيلان في هذا «الحريم» بين عنف ولطف، ودفع وجذب. في حرب مع اثنتين وهما من العجائز الشمط : القيدوم «الصيهود» و«المجعدة المغبار»، وفي حبّ مع اثنتين وهما من الغواني : الفرعاء جسمها بماء الحياة طافح والهيفاء قدها من الأثير شفّاف.

هو وصاهباء من الأعداء الألداء، الحرب بينهما شاملة لا تحتمل صلحا لا ولا حتى هدنة لأنها نزاع على الملك، ملك الدنيا، فإمّا هو وإمّاهي. ومن الاسمين يبدأ بينهماالخصام.فهي الصهباء الصاهباء ذات اللهب الحارق جفّت له الأرض جفّا، وفي حروفها من التفخيم والتشديد والمدّ مايشي بأبّهة السلطان. وهو الغيلان ظمأ إلى الماء يروي به فيروى. «إن داءه الصدى..»به من فرط العطش غليان ومن ربّة القحط يريد أن يشفي الغلة. ضدّان لا يتفقان قد فرّق بينهما في الخرافة مايفرق بين ربّة عتي وإنسان أبيّ، فهي«الإنجيل» وهو الكفران وهي الأمر وهو العصيان، وهي الحدّ وهو العدوان. وسواء هما إلى ذلك في السمو وهما في الجوهر شبه. طاولها بقامته فنزل بأعلى الجبل ليقابلها في أعلى الجبل ندّا لندّ وإليك صاهباء فأتّي البطل الإنسان !» وبمثل سلاحها صاولها، تصلّبت منذالقدم على رأس الجبل قطعة منه صمّاء فأقبل على صخرها يقرعه بصخره من كتل الجهد وجلاميد السدّ. ورمته من الكلام «بالصلادم» و«الصلندي» فردّ عليها من اللفظ «بالصلد الصُلُدّ». وكأنها حرب الجبال طوداً يلاقي طودا. تهويل للصراع على عادة الأساطير في تعظيم ملاحم الجبابرة. وتقوم الشمس شعارا بينهما مشتركالها منها القيظ وله الفيض، وإن تمنى يوما أن يغرقها في ماء العين فليطفئ فيها لهيبها لا الضياء. يبدو والرّبة من معدن واحد أو من صلبها قد اشتق فكأنه من جسمها صخرا على صخرها ومن شمسها نورا على النار. ولعلها فيه جزؤه الإلهي الذي به يتسامى إلى مقامها. كانت، في ما يحدث به «إنجيلها»،قد صنعت الكون في القدم وسنت له سننه ثمّ أنشأت

الإنسان من عدم ورسمت له منزلته، فدار العالم على ناموسها رتيبا سرمدا، وسار القوم على حكمها رضى بالقحط وصوما عن الماء. حتى خرج عليها هذا «الغريب» (ومن أين أتى ؟) يطلب لنفسه مرتبة الأرباب. «رجيم» من الإنسان كأنه المارد يهمّ أن ينسخ «بكتابه» «كتابها» وبقوانينه أحكامها وأن ينقض على عرشها يطيحه بها ليبسط مكانها سلطانه فيملأ الأرض خصبا بعدما ملئت جدبا. يرق هذا الصراع بطبعه، إذا تأملنا، إلى خراف اليونان الأقدمين كما توارثها عنهم وتأوّلها «الانسانيون» من... فلاسفة الغرب وكتابه. فليست «ذات الرواعد» صاهباء إلا صورة، مؤنثة، من «ذي الصواعق» «دزوز» رأس الآلهة في معتقداتهم القديمة، ولا الانسان المتعالي، غيلان، إلاّ صورة، معربّة، من بطلهم نصف الإله «بروميتي» غير أن الصراع صار على الماء لا على النار سرّ ضعف الآلهة ولا سرّ قوتهم، وعذّب إله «الأولب» سارق النار على عصيانه فعاقبت ربّة الوادي «سارق الماء» على كفرانه. حذوا بحذو. فمن ههنا، ميتولوجية الإغريق وثقافة الغرب، جاءت الفكرة وقد يكون لذلك سمي غيلان في القصّة «بالغريب». ولم تكن من المسعدي مجرد ظاهرة من ظواهر التأثر بآداب الغير وفكره وإنّما لها من ظروف عصره أسباب تفسرها وقد تنجلي في مكانها من الدلالة.

وعلى «الأرض» الخصام وفيها. «عجوز» كصاهباء تنبسط من تحتها في الوادي مرآة لها تطلّ عليها فترى فيها صورة نارها. ومن نارها احترق جسمها قاحلا وتيبّس، وتجعّد أديمها يعلوه الغبار، وشاك شعرها نباتها فقام كالإبر. فهي صورة الوجود «صحراء» ولظى كنار جهنم وغيلان «ذكر به لوعة الصادي» فإلى العين والريّ ولتينع الدنيا كأنّها جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ! وإنما لذلك هو «سارق ماء» وبالماء يريد أن يطفي الأوار ويعيد «الفاجرة» إلى الاخضرار. وكذلك هي عنده، على سنّها، لأنها ما فتئت تتيح جسمها وتبيح لكل غازٍ قوي فلم لا تكون له ؟ ويخيّل إليه أنه يسمعها في عواء الذئب تناديه وهي تتضور وجعا من شدّة الحرمان. ومن العجيب أنّها من «الحريم» الوحيدة التي يشتهي أن يكون لها بعلا ويقسم ليقعنّ عليها فيحيلنها ماء» فيخصب الرحم منها بعد عقم وينجب وتكثر الولادة فتكون له، الإنسان، جنته الموعودة. بكل هذا العنف يريدها ولا كلطف «أنثى» إذا حنّ إلى الأرض أمّه يمسّها فتعطيه منها قوّة. ومازالت الأرض «في الرمز» للانسان أمّا من طينها جبل حتّى صارت لغيلان في «السدّ» عشيقة عاهرة ويريد أن يركبها

غصبا كفحل الضرَاب. أبه عقدة «أوديب» فيروم ولا يدري أن يتزوج أمّه بعدأن يقتل «أباه» صاهباء ؟ ولكنّ الربّة، بل «مولاها» الكاتب يمنع إثم هذا الوصال الحرام. فتبقى الأرض على حالها من القحط وغيلان على ظمإه من الشوق إلى سلسبيل فردوسه المفقود.

والأرض، ميمونة تعرفها، أو كانت قبل أن يفصلها عنها بالكبر غيلان. وقد «باركها» بهذا الاسم الكاتب حباء لها منه لأنها سعادة كلها، سعادة المطمئن إلى الدنيا قد سكنت إليها روحه في وئام عميق. فبالدنيا قد آمنت ميمونة مستغنية بداني قطافها من لذّة المحسوس الموجود عن طلب المتمنى. لا تطمع نفسها الى الغايات القصية فتشعر دونها بالعجز وتحتاج إلى أن تغطيه منها بسدّ. «فالفاقة الكبرى» حال لا يدركها إلاّ الذي فتنه عن نفسه المطلق بما يغريه به من عناق اللانهاية. ومن أين لميمونة أن تحسّ «بالجوع» وهي التي تجد لها نور الفجر كأشهى الطعام ؟ فمثلها مفعم الذات بالحياة لا يشكو خوى، تشعر بالتمام لا بالنقصان...أو من غيلان حبّها وفيه محنتها الوحيدة. امرأة هي، كما عرّفها الكاتب في التقديم، ولها جسم فاخر زاخر يشدّها بقوة الغرائز إلى الأرض تنعم عليها رضية، ومن الكاتب مرضية، مستسلمة عن طواعية إلى النواميس. ولا تراها صحراء من القحط بل واحات خضرا،من المتع الحاضرة، ولا ترى للماء سدّا، «فشأن المياه أن تجري..» حرّة. تجيش حسّا وعلى التلقائية تعيش مندمجة الكيان في الوجود. ولحميم الاتصال به تتجرد خلقا وخُلقا، من الثياب ومن الخيال، فتخرج عند الفجر في الخلاء إلى الطبيعة البكر والوحوش الطليقة، عارية كحواء في بدء الخليقة، لتذوب في الكون لذة بالكون. فإن بدت شهوانية فشهوانية مُرَوْحَنة قد صفتها نفحات ذكية من عشق «الحلول» كبعض الصوفية.من طهر عريها لا من عهر كأهل الفطرة أول نشأة الإنسان وإباحتها كإباحتهم استرسال سمح مع سلامة الطبع. إن هي إلا «دعوة الدنيا» تلقتها فلبتها على السجية. وتردد في «السدّ» لحنا عن الكاتب مأثورا في كل أدبه : أسطورة العود أبدا إلى البراءة الأولى حنينا إلى الجنّة الضائعة. فلسفة برمتها قد تصورت فيه إمرأة، فلسفة «الطبيعيين» يجري معينها حيّا في ثقافة الإنسان مذ كان. وبكل هذا الثراء من المعنى تحضر في القصة الى جانب غيلان. وليست زوجة له بل صاحبة، خليلة لا حليلة. كريحانة مع أبي هريرة أو كظلمة. أو لاتخاض المغامرات الكبرى الا مع العشيقات دون القرينات ؟ والحق أن هم المسعدي في

القضية أن يُرجع علاقة الرجل بالمرأة إلى أصلها قبل «العقد الاجتماعي»، إلى طبيعية الصلة الأولى بينهما من حيث هو «هو» وهي «هي» على حدّ تعبير صديقه الدوعاجي، في راعي النجوم. وميمونة لقوة شخصيتها صاحبة للبطل عصية، مرافقة مفارقة. فإنها «لميمونته» وإنه «لغيلانها الحبيب» والحبّ بينهما قد بات مستحيلا. فهي شقّه ولكنها ليست لروحه أختا، ومنه ولكنها مختلفة ومعه ولكنها في المغامرة عليه. انقطعت عن سدّه من أول يوم فانقطع عنها إلى السدّ، وكلما عاد منه إليها لقيته كالمرآة تعكس إليه بقسوة الصدق حقيقة منه يأباها، تريه فعله عجزا، وجهاده جبنا، وسدّه لذاته هدما. وتسمعه من نفسه صوت «الشكّ والحيرة» ويريد أن يخنقه فيه فينطق إليه بلسانها صريحا. فيصطدم المنطق بالمنطق والفكرة بالفكرة ولا اتفاق. تدعوه إلى إيمانها فيدعوها إلى إيمانه. وتناديه إلى ساعة من الحبّ خالصة ليست من المكان ولا من الزمان مطلق غيبوبة كمثل الجنة أو الأبد يفنى فيها الجسم في الجسم وتذوب الروحان فلا يستجيب . تصلبت نفسه من فرط التكتل إرادة محضا وتحجرت فيه المشاعر من كثرة ما احتك بصخر السدّ وصخر الرّبة. شيئان لا يجتمعان عنده : الحبّ والسدّ. حتى لكأنه صراع «العاطفة والواجب» كالذي نجد في بعض المسرح الكلاسيكي. ويشدهما إلى ذلك ما يشد الضد بالضد. فهو في حاجة إليها وإن كذّبت بسدّه، بل في حاجة إليها لأنها تكذب بسدّه. لا يخشى المناقضة من شدّة الصلف بل باختلافها يدرك ضعفه فيزداد عزمه ويبصر نقصه فتتطامح عينه. ولكنه من نزاعها لا محالة في حرب أهلية إلى حرب صاهباء: فواجهته واجهتان داخلية وخارجية ويقف في المركز من نقطة التقاطع بينهما. وبهذا التضعيف للصراع يتعاظم جهاده وتتفاقم مأساته ويبلغ توزيع الوظائف بين الأشخاص تمام إحكامه في لعب التقابل والتماثل. ولميمونة، إلى دور المعارض، دور السحرة والعرافين الكهنة في التراجيديات القديمة و«مكبث» شكسبير[1] ينذرون الأبطال بمأساتهم قبل أوانها. فهي امرأة ذات هجس تنظر إلى جبل صاهباء أول الوصول فتسمع في صمته الثقيل «لحن السواد» قبل ان يقصف ويعصف. وغيلان يضحك ويعبث. وذات حدس «تظنّيها طليعة عينها» ترى في حلم ليلتها ما

1) «.. وشكسبير من الانجليز..» من جواب السعدي المذكور – المرجع السابق.

سيكون يوم الدمار. ترى في منامها السدّ قبل فجره وقد قام رصافا من الجماجم «كهام الأولين» ولا يحبس ماء والجبل يسعى إليه، أسود أشعث فيدكّه دكّا. وغيلان يسخر ويجدف. لا يصدق بالجبل يتحرك عن رواسيه كما لم يصدق «مكبث» «بالغابة» تزحف إليه، على ما حذّرت العرافة وإنما هم جند الأعداء يتقدمون إليه في معقله لهلاكه وقد تستروا بفروع الأشجار. ومازالت صلة البطلة بالبطل تتأزّم حتّى بلغت معه «أقصى جهدها» ليلة الصدام فتخلّت عنه وحلّت محلها في الحين ميارى.

ميارى ! ما أعذبه في السمع إسما، حروف ليّنة سيّالة في رقّة الأثير الذي منه قدّت ولذّة الأحلام التي فيها تمثل. اسم خلاّب ولكنه مشتبه المعنى من مير ومراء. فكأنها إمرأة وهي من مرايا الخيال طيف، صفات ولاذات وظاهر بلا باطن، ماء وسراب، وريّ وظمأ. تعد بخير الشراب وقد لا تفي، وهي من الهواء، إلاّ بالهواء. جاءت غيلان في الوقت المناسب ترفرف عند رأسه وهو في أحلك ساعات الخيبة مهزوما وحيدا أليما. فغذّت منه وهي الحلم، خياله وقد هوى، وشدّت، وهي الطموح ساعده المشلول، ومن جمالها زينت له فحم سدّه المحروق صرحا باسما شامخا. فأغرته بالمعاودة إلى النهاية. ومن تلك اللحظة انفصمت عراه بميمونة الأرض و«أكله الخيال». وفي ساعة الكارثة أقلع مع ميارى تعانقه مواسية، ومن الأمل تشقّ له في الظلمات طريقا وإن نأى إلى الضياء. فهي له وميمونة كالشيء ونقيضه، صوته الذي لا يدارى في الحق و«عينه التي لا تماري»، وهمس الأماني يدعوه إلى «إرغام المستحيل على الإمكان» ورؤيا الأعلام تخرق الحجب وتفتح له أبواب الجنان. وهو منهما في جدل مع نفسه بين موجود ومنشود، ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. فكأنهما له جناحان متعاكسان هذا يهبط به أرضا وذاك يحلق به في الأجواء فيتأرجح قبل الاقلاع تأرجحا بين الدنيا والسماء «مأساة الإنسان يتردد بين الألوهية والحيوانية...».

وحول المربع الأول من النساء، مربع ثان من الأتباع : نبي وبغل ذكي وذئب ذو هواء، وحجرات، إنسان وحيوان وجماد يمتزجون، وقد يتناسخون، صورا مركبة يختلط فيها الأجناس، وفي عالم الخراف تمحي الحدود بين أصناف الموجودات. ولد النبي إنسانا تسكنه روح الربّة وبفمه تنطق ولكنه من كثرة هواتفه «كالسعالي لا إنس ولا جان»، والحيوان ذو لسان ناطق كالإنسان، والحجر بشر. وكلهم

أصوات لا تتدخل في مجرى الأحداث إلاّ لتتنبىء بما سيكون منها أو لتعلق على ما كان.

فالنبي لسان الربّة وترجمان غيبها ومن نارها فيه ذاب لحمه فلم يبق إلاّ الجلد على العظم. بأمرها يتحرك إن قال وإن فعل. في الدور الأول ينطق بحكمها فيرسم لغيلان حدّه وفي الدور الثاني يعمل بسرّها فينفّذ في سدّه كيدها. أنذره بما لا بدّ أن يكون ثمّ أوهمه خدعة بما أبدا لن يكون فكان من الربّة صوتها يجهر ويدها تدسّ، دولابا خطيرا من جهازها الرهيب.

على خلاف الجواري من الحجارة «فقد منعن الحيلة ومنحن الحؤولة» على حدّ قول أبي العلاء في «رسالة الغفران». ومن تلك الرسالة قدمن إلاّ أنهنّ يولدن فيها من الأشجار وفي «السدّ» من الأحجار، وكنّ أحيانا رعابيل ردف الواحدة «ككثبان عالج»، فصرن أطيافا خفافا لطافا. ووظيفتهنّ وظيفة «الجوقة» نصفها للبطل ونصفها عليه، يكبرن في الإنسان عظمة روحه «أبعادا لا تحدّ» ويضحكن من كثرة أوهامه. فيلقين عليه وهو في البدء أضواء وظلالا فتتذبذب صورته في الذهن، أقوى هو أم يتقاوى وقدير أم يتقادر ؟ ويتأرجح سدّه في فجره، بين الإمكان والمحال والحقيقة والبطلان. فلا ندري أيكون أو لا يكون. ويعرف الكاتب أساليب التشويق والتعليق وأفانين الإيهام والإيعاز ظاهرا باطنا. وفي تلك الأوانس الأحجار من «الشوق إلى العلم» كديادا قبس من نار العصيان. يزدرين أصوات النبي ويخشين سطوة الربّة فيرتلن من انجيلها متعوذات من «الانسان الرجيم» في ظاهر خشوع وتقوى وفي سرّهن منه عجب وبه إعجاب وعليه شفقة. فقد تندلع منهن في سماء صاهباء فتنة كالتي على الأرض لغيلان من ميمونة فتكون حرب أهلية بحرب أهلية «والسدّ» في البناء، توازن كلّه وتناظر.

ومن الحيوان الذئب، صاحب الصعاليك من شعرائنا، «أهل» الشنفرى «وسيده العملّس»، ورفيق آخر منهم «يأنس إليه إذ عوى». ومن الشعر الجاهلي أتى «السدّ» بأجواء الفلاة خلاء ووحشة. هو ذئب وأكثر من ذئب. لا يعوي إلاّ ليلا وثلاثا في ثلاث فيحسبه غيلان صوت الأرض تشكو أوجاعها، وتحسبه ميمونة صوت صاحبها تصرخ نفسه في الوادي بآلامها. وإنما هو، كلّما صوت، كالدقات الثلاث على خشبة المسرح تؤذن برفع الستار عن فصل من فصول الرواية أو كالأنغام في الأفلام تشتدّ فجأة وتعمق إشعارا بالتوتر أو إنذارا بقرب البلاء. فيعوي ليلة القدوم

«نحيبا» على خراب السدّ قبل بنائه، وليلة الصدام «نديبا» عليه وقد أكلته النيران، وليلة الهلاك عويلا عليه عمّا قليل تعصف به العاصفات . إنه صوت الشؤم يردد في فضاء القصة ليلا أصداء المأساة تبدأ ثم تشتدّ ثم تنتهي بويلاتها...

بلسان الهزل يتحدث البغل والمسعدي يحبّ على غرار شكسبير أن يخلط بالهزل القهقهة فبغله أعجوبة في البغال "ذكيّ" على بلادة جنسه وفصيح لا أعجم : نكتة من ورائها نكت، أولها حلو وآخرها مرّ. لأنه بهذا البغل قد أريد عبرة فكيد له البلادة، وهو لا يشعر إلى أن وقع في الفخّ المنصوب له وانغلقت عليه بلا رحمة أنيابه. «الجهنمية» دبّرها له «إله» النصّ الكاتب. فهو في القصّة صوت نفسه ومن خالقه نفسه... من الأشباه. شخص زجّت به الظروف رغم أنفه في ملحمة تفوقه ولا يعي، إلاّ آخر ساعة، ما دخله فيها. كان في الأصل «حمّالاً في النازلة»، رفع عن غيلان أثقاله إلى أعلى الجبل، فأوثقه غيلان بصخرة في أعلى الجبل. حصل ولا يدري أنه حصل بل تخيّل نفسه شاهدا يتفرج من شرفته على ما يجري أمامه من مرقى الكبار. وينظر فلا يدرك من روع الفاجعة إلا قدر عقله، سخفا في كلّ مرّة يضحك. يرى السدنة في هيلمانهم قدموا بإناء الماء لعبادة الربّة فيحسبهم وفدها إذ جاءوه بالسقاء. ويسمع الحجارة تتداعى إلى فطور الصباح فيشتهي أن يعرف ما عسى أن تأكل الحجارة في فطور الصباح. «هروقي» همّه بطنه. الدنيا تنذر بالويل والثبور ولا فكر له إلا في أكلة ينتهزها أو شربة. ويطرق أذنيه عواء الذئب فيتردد : «أيستجاب أم لا يستجاب ؟». يود أن يشارك الجماعة بصويت لكنه يحجم حتى يقال: لا بد من الحيطة. وما أدراه ما جلية الأمر، وهذا العواء مريب وراءه ما وراءه. فالحذر ! الحذر ! حكمته الخوف والطمع كفلسطاف شكسبير. وبهذا الذكاء يقدر ما يحيق به من عظائم الأمور فيقلب جد الأبطال هزلاً، والمأساة ملهاة... ولا يعلم من ذلك شيئا. يُضحك ولا يضحك. فالمنكت الكاتب يلهو به ويلهينا في قتام الفاجعة. وعمّا قليل به في خبث ينكّل... والبغل لا ينتبه. يتفلسف «كفونة» الدوماجي أحيانًا «فيحرك فكّيه» في صمت يفكر «فيما قدر له من شأن بين البغال» ولا يفطن للشر يهدده، وممّ يخشى فإنما هو متفرّج لا لاعب ؟ وأنذره النذير حين أوعزت ميمونة إلى غيلان، عابثة، أن يذبحه قربانًا للسدّ، فيرتعد. كاد يذهب ضحية غفلته، ومن غفلته لا يخرج. عدّها غصرة من مزاح المتازحين وقد مرّت ولا خطر حتى عصفت الزوبعة، فألفى نفسه في قلبها «مربوطًا بشأنه» ولا أحد معه. نسيه ربه

غيلان في محنته، وما نسيه رب غيلان الكاتب، وقد شاء أن يجعله للناس أمثولة فختم الفاجعة بمشهده «مشدودا إلى الصخرة» والهلاك يدهمه. وعبثا «يصيح من الرعب ويضرب بالحافر». فلات حين مناص. لم يفهم أنّ الأمر يهمه حتى عمّه.

وليحذر القارئ هذا البغل، فإنه في القصة صورته، إن وقف في الحياة موقف من يتفرج من لوجه على فواجعها وكأن لا شأن له منها إلاّ خبزته يأكلها مسارقة، أو إن طالع صفحات هذا الكتاب وفاقه المعنى فحرك فكيه يتساءل : «نعيق البغل يستجاب أم لايستجاب ؟» فيذب النهيق ويأتي الشهيق. « فالسدّ» على وجه ما، هو المسرح في المسرح، والركح في الركح. والأدوار فيه بين لبيب ومغفل، مصارع ومتفرج وكلاهما اخر الأمر في البلاء سواء. على أن لهذا فضل الجهاد وليس لذاك إلا تلف من مات هملاً ومن أنذر فقد أعذر.

وحول هذا المربع من الأصوات دائرة الجماعتين : قوم صاهباء وأصحاب غيلان.

لايظهر من أهل الوادي أوّل ما يظهر، وبالوصف من فم ميمونة لا بالمثول، إلاّ تلك الفتاة لقيتها منهمكة في الصلاة وهي «عارية» «وكالذّائبة لذّة» تشيع في القصة من أول منظر نفثا من إباحة البدائيين. وتختلط عند الوثنيين العبادة بالشّبق فيمتلكهم معبودهم في المناسك من أرواحهم والأجساد. أفلا نرى إلى صاهباء كيف اكتنفت مصليتها اكتنافا من تحت ومن فوق : صفاة إليها ظهرها وشمسا عليها وهجها.صخر و نار تفني بينهما حسّا ومعنى. وإنها، من المدخل، لأسطع شاهد على قوّة ما يشد القوم بالربّة. وأنّى لمن يقدس اللهيب أن يألم كغيلان للظمإ ! والصراع على السدّ، من هذا الوجه، صراع بين الماء والنّار، طراوة الخصب وحرق الجفاف، الكوثر والزقوم، والجنة وجهنم. استعارات تدلّ بتنافيها على هوّة ما يفصل بين حلم غيلان وواقع أهل الوادي، فكيف بينه وبين القومة «أولياء» الربّة !

لنار صاهباء لدى القوم «بيت» تعبد فيه كما كان عند المجوس قديماً. «وللبيت» سدنة، وللسدنة «خرجات» وحلقات من الذّكر والرّقص... كبعض التي كانت عندنا، الى عهدٍ غير بعيد. وقد هوّل الكاتب بالوصف حفلهم على قدر تعظيمهم للربّة، وعلى قدر تحقيره لشعوذتهم يعرّض بهم فيه تعريضا من «خشوع ذلّ ومشية قهقري» و«رؤوس حليقة ناتئة كالعناصل» و«غوغاء»؛ وجاؤوا وآخرهم

إناء الماء، وذهبوا وآخرهم «نعيق البغل»، نكتة قارسة يشيع بها جمعهم. ما كان بحبّ «تخميرات العيسوية» «ببرانسهم الأسباط». يهزأ من شطحاتهم ولكنّهم من أوهام غيلانه يهزؤون بمائهم ذاك، في الأثناء تحرقه الربّة فيصعد في الجوّ روحا من النار. فإنّما هو رمز إلى السدّ، ولمّا يبدأ، يتبخّر حلمه دخانا في الهواء قبل احتراقه يوم الصّدام، وانسحاقه يوم الدّمار هباء في الفضاء منثوراً. هذا إلى ما أنشدوه في أذكارهم وهو على «رطانته» كلام «بعيد المعنى»... ولن أشي بسرّه فهو من المضنون به. ذاك دورهم : في منطق الأحداث، أدوه دعاء ولعنة على رفات السدّ قبل ميلاده.

أما بقيّة القوم فجمهور غفل إلاّ من سيمائهم الجماعيّة. تقوم عليهم صاهباء في واديهم، قيام الناموس السّرمد. فعاشوا في طاعتها لايعصون لها أمراً حتى أدركوا من أرضهم حكمتها وأن روحها القحط فذابوا في نارها كالسّمك في الماء. هزال الأجسام، حياتهم شظف، كفاف من التمر ومصّ الندى على الحصى. يكثرون من التعبد صلاة وتسبيحاً ولا يظهر في الحكاية أنّهم يعملون. ماهم بأهل دنيا لا تشدّهم إلى الأرض إلاّ أقدامهم، وأمّا الأرواح ففناء في غيب الربّة. عالم منطو على نفسه، راسخ في القرار قليل الماديّات كثير الرّوحانيّات، عليه من الشرق سمات. لاكغيلان وصحبه فكأنهم طلائع من الغرب طالعة : عقل يهندس وأيد عاملة وآلات ودواليب وحديد وأنابيب، «حداثة» مدّججة بعتاد ضخم من الفكر والأجهزة تتدفق فجأة في الوادي لتغيّر الأرض ومن عليها، وبحركتها المدويّة تقتحم سكون العالم القديم. «حضارتان» تتواجهان، تلك الّتي مركزها الربّة وهذه الّتي مركزها الإنسان، ولا تواصل في القصّة، بينهما. قاطع أهل الوادي هؤلاء القادمين عليهم من آفاق أخرى فلم يقربوهم فإنهم «لغرباء» عنهم، غرابة التمرّد عن الاذعان و«الكفر بالنواميس والحدود» عن الايمان. ولم يبال بصدّهم غيلان فعسى أن يقتنعوا يوما بسدّه فيؤمنوا به وينبذوا الربّة.

أمّا الآن فيكفيه من الأنصار رجاله «البنّاؤون» فهم «حزبه» من الأحرار الثوّار. وعليهم، في قاع الوادي، يشرف كصاهباء على قومها، من أعلى الأولب، إشراف الرّأس على اليد، والعلم على العمل. فإليه زمام التدبير وعليهم التنفيذ. ينزل إليهم في الغور ومن عقله وإرادته يبثّ فيهم فيبنون. ثمّ يعود فيصعد فوق الجبل يسطّر ويقرّر. وماهو منهم وإن نزل فيهم، بل معهم متقدّماً عنهم، ويعلوهم

«السّواعد والصدور» رأساً وجائنا «فكرة عبقرية ذات بأس» تسوس جيشهم من «السّواعد والصدور» ليست «عضويّة» هذا العلاقة بين «المثقف» و«جماهير العمّال» بل تشي منها بتوتّر يهدّدها من الدّاخل بانفصام عراها. وفي يوم الصدام انفصمت وقد غلبت الرّبة في أرواحهم فانقلبوا عليه كافرين متمرّدين. وإذ خذلوه ازداد «الانسان» فيه عتياً وكبرا. فطغى كفرعون وتجبّر، وعزم إن يسوطهم وأهل الوادي جميعاً في تشييد صرحه إلى التمام سموا بهم رغمهم نحو الغاية العليا. كان يهدي الناس بنور العقل فها قد صار يقودهم إلى الجنة بالسلاسل. وفي ساعة الكارثة لم يلتفت اليهم شغله عنهم ما كان فيه من همّ الوقوف « قرارا في الزلزال على الزلزال» .... ولا التفت اليهم، وهذا أدهي، الكتاب. تذكر البغل في الزوبعة ونسي البنائين. وهو الخلل الوحيد في مبنى «السد»، علّة في التركيب من ثغرة في الفكر. صرف ذهنه عنهم ما كان فيه من شدّة الاهتمام بمصير «الوحد الأوحد» وهو في القصة فرس الرهان لا هم.. فالسدّ حلمه لا حلمهم، والمعركة معركته قبلهم. ولئن بدت في أولها كالملحمة الجماعية فإنها في جوهرها مغامرة فردية يخوضها لنفسه أولا، وفاء لفكرة له عن الانسان شاهقة، ثم للجماعة من ورائه يرسم لهم المثال قائداً عنيداً وبطلاً رائدا أشبه ما يكون بالإنسان الأقوى كما تصوّره نيتشه، لولا أن الربة أطاحت بسدّه، وما أطاح بعرش الرّبة. فهو «النجم» وبه الاهتداء، وهم في فلكه يدورون.

وما لتعاليه هذا بالفكر عن «العمال» انهدم في القصة صرحه، خلافًا لما نقرأ في مذهب رائج، ولكنه ساذج، من التأويل. لقد كان مقضيا على السد من البدء أن ينهار حتى لو كان غيلان «زعيمًا بروليتاريا» وبعد فهذه سدود لينين تنهار في الواقع فما بالنا بسدود الخراف ! فإن شاءت له الربّة أن يدمّر فلأن رب الربة الكاتب شاء لها أن تشاء. وما كان ليشاء لولا منطق المأساة قد سطر من قبل للسدّ حدّه. فليس الذي يناقش إذن هذا أو ذاك من ملامح غيلان الجزئية، بل كلية مفهوم الفاجعة وفي موضعها هذا من النّص، رؤيةُ الكاتب، وفي مستواها، ما استطعنا، من الفكر. لأنها لاتخص أعمال الانسان النسبية من خير وشر وحق وباطل، بل مطلق الفعل البشري سببًا وغاية، ولا لتعطيله بل لتأصيل معناه في العقل. ويختلف في الفلسفة هذا المعنى اختلافًا من إيمان بالله عند المتدين إلى محض اعتقاد في الانسان عند من ليس على دين ومن مجرد جمالية تتذوق لدى «الأكياس» إلى مطلق المجانية كالعبثيّ إن فعل فلا لشيء. ولكل امرئ ما نوى.

«والسد» صورة الفكر يتقصّى في الفعل طاقة الانسان. فيتردد تردداً بين نقيضين في العقل : قدرة بلا حدود وعجز أبداً عن الكمال والدوام، وإرادة لامتناهية، وتناه إلى الحدّ ولا بدّ. نخوة الانسان، وهزء القدر، غيلان وصاهباء. فيظل كوتر القوس مشدوداً شداً إلى قطبين يتدافعان بلا هوادة ويتجاذبان. ويدور على نفسه متسائلا أملحمة كلّها الحياة ام، كلّها مأساة ؟ وجوابه في النص أنّها الملحمة والمأساة معًا، ووجهًا لوجه بلا واسطة، تحدّ بالخلق مطلق ومحق مطلق للخلق، سدّ وسحق وفعل وفناء. وحدة لاتنفصم من ضدّين يصطرعان ويشدّهما جدل ما بينهما من السّلب والإيجاب. كلاهما ينفي الآخر نفيًا وبنفيه يثبته طرفًا له لازمًا. فإنْ ملحمة فإذَن مأساة، وإذ هي المأساة فلا بدّ إذَن من الملحمة. ينقضنا الهدم فنبني لننقض الهدم، فينقض الهدم ما بيننا. كون وفساد، ووجود وعدم، هكذا دواليك. فالمأساة في «السدّ» دائرة تنغلق على نقيضين ولا إمكان للحلّ بالتّجاوز. وهي في جوهر معناها أبعد ما يكون عن أسطورة سيزيف. فبطل اليونان محكوم عليه «بالأشغال الشّاقة» إلى الأبد، وفعل غيلان إرادة، اختياري لا اضطراري وحريّة لاعبوديّة[1]، من شرف الانسان لامن ذلّته، معنى له في الوجود لا جهد باطل.

أولئك هم الأشخاص وتلك في التوزيع أدوارهم. وإنّهم لرموز مثقلة بالمعاني تطوف طوافا بقطبها البطل الإنسان كالمرايا تعاكسه من مختلف الزوايا، وتبادله الملامح وجها بقفا. فهو في عينه وعين خياله مياري، «الانسان مادام الجدّ، مادام الجهد..» وفي عين الآخرين : دعيّ رجيم من العتي والكبر،وجمّاع للأوهام لمّام. يلقون منهم على ضيائه ظلالا فإذا هو يشرق ويظلم أبيض أسود. أبيض كنور الفجر، كماء العين، كغرّ الأحلام، كصفحة السدّ ناصعا شاهقا؛ وأسود كدجنة الغروب، كدكنة كاذب السحب ترعد وتبرق ولا تمطر، كغشية السكران من التّيه، كويل الدمار. أعظيم هو كالجبل أم صغير يكابر ؟ وقويّ كالصخر أم ضعيف يعاند ؟ لاشك في أنّه صورة من إنسان «الإنسانيين» لا إله إلاّ هو، فيما يعتقدون، ولا سماء إلاّ الأرض، ولاجنّة إلاّ عليها ولا نار. ولكنّه إنسانهم محجوجا محجوزا عليها. «كائن زائف» هكذا ينعته الكاتب في التقديم ولا ندري، ممّا زيفه. من تزيّد أم نقصان ؟ ألأنه «إنسانا إنسانيا»،يدّعي من القدرة ما ليس فيه أم لأنه لم يبلغ بعد من القوة أن يكون كإنسان «الإنسانيين» ؟ أراد أن يكسر بسدّه الحدود فتكسّر سدّه على الحدود. قد قهر فهل انكسر ؟ خسر المعركة لا الحرب أم خسر من المعركة

(1) — انظر محمود طرشونة : «الأدب المريد في مؤلفات المسعدي». الدار التونسية للنشر 1978.

الأولى الحرب ؟ سؤال يبقى معلّقا بلا جواب حتى إن احتكمنا إلى ختام الرواية، وقد طار في الزوبعة وكأنه فوقها يسمو. أقذفت به في الهواء كقشة التبن أم هو الصعود إلى علياء المجد ؟ وجرفته الرياح أم يركب موجها في رحلة البطولة ؟ ويغوص في الظلام أم هو إلى النور يسري ؟ «أصعقته الصاعقة أم هو الذي أهلك الصاعقة» ؟ (والمعنى من «أفكار» باسكال و«قصبته المفكرّة».) أم هو التردد بين المنزلتين صغير الجرم عظيم الرّوح، ضعيف الحول قوي الطموح، محدود ولا محدود ؟ ولا زوبعة، على وجه الحقيقة، إلا ما في رأس الكاتب من صراع الريح والريح، ريح الغرب تصطدم بريح الشرق، إيمان بالأنسان الإله وإيمان بإله الإنسان، كلّ إلى الإنسان «سيدا للكون مالكًا» وكل الإنسان إلى ربّه خالقا مالكا. هذه قضية «السدّ» في ذروتها الفلسفية. وهو «كتاب الإيمان يسع من الحيرة أقصاها ومن الشك أقساه». ومن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يؤمن، كما قال أبو حامد الغزالي. ولهذه الفوقية من الفكر في النص أرضية من التاريخ تنكشف بعد حين.

«السدّ» تمثيليّة، ولكنه مسرح، لا يعطينا أن نشاهد بقدر ما يعطينا أن ننصت. لا يلوح البطل في سائر مواقفه، وهو رمز الجهد، إلاّ قائلا دونه فاعلا. لقد غيّب السدّ في قعر الوادي، آخر الركح، لانكاد نرى منه إلا قليلاً وإنما نسمع أصداءه تترامى من مقدمة الأخشاب إلينا على ألسنة المتكلمين. خلص من ماديته فاستحال معاني هي التي تتحاور وتتحارب، ولا من ساحة وغى إلا الرؤوس، ولا من قعقعة إلا العقل يقرع العقل، ولا من سلاح إلاّ الفكر. «مسرح ذهني» «كبعض الحكيم»[1]، لا ينقل لنا ملموس الوقائع بل معانيها مجردة في النفوس فيسعه الكتاب ولا تسعه الاخشاب. وإن أخطأ به المسعدي الركح فقد أصاب الأدب.

والأدب بدءًا ومنتهى كلام.

فإذ قد استحالت الأحداث وما إليها من زمان ومكان، والأشخاص من إنسان وربه وأصحاب وأطياف وهواتف رموزاً، واستحالت الرموز معاني إرتدت المعاني آخر المطاف، إلى معدنها اللفظ. وإذا لاشيء يتحرك على مسرح الكتاب إلاّ

1) – من جواب المسعدي على سؤال صاحب مجلة «الندوة» – المرجع السابق.

الأسماء، ولا بطل إلا اللغة تلعب لنا أدوارها بروعة جسدها المنحوت في مرمر الكلام، صمّاء وصقيلة صفاء. وأسلوبها، وهذا سرّ أسرارها، أساليب، فهي واحدة متعددة، وقديمة متجددة، وكثيفة شفافة، وكالمنطوقة وهي مكتوبة.

عتقت من شدّة الفصاحة حتى كأنها بلاغة القدماء، بل الأقدمين، قد عادت إلينا بكنوز أهملناها من أفانين البيان. ذخائر من اللفظ الأصيل، وثروة من تصاريف الأفعال والأسماء، وأشكال من النظم الوثيق كالبنيان المرصوص، وناهيك منها بفتنة الحروف، تختصر الكلام اختصاراً فتغني عن كل فضول. لغة أثيلة تنطق بملئها من إمكانات نظامها وكل ما ادخرت على مرّ القرون من أقوال المبدعين. فإن شاءت ألغزت وهوّلت كخطب الكهّان، وإن شاءت أغربت وتوحشت كقصائد الجاهليين، وإن شاءت رتلت ورجعت وحيا من كتب الدين قرآنا وإنجيلا، أو جزلت وترنقت «أصبهانية»، أو مرنت وتدفقت «حيانية توحيدية» أو فخمت من نحوها «متنبئية»، وقد تسخر بسمة «جاحظية» أو «علائية»، أو تتمنطق كالفلاسفة، أو تتوجّد كالصوفية، أو تذوب رقة كغزل المولدين «طريفة خفيفة كعينيك (يا ميمونة) زرقاء...» وإلى تالدها هذا أضاف الكاتب من روح العصر وثقافة الغير طارفًا. فما هو بالمقلّد، بل مولّد، يخترع ولا يحاكي. فجال بالعربية في ما لم يكن لها به عهد من مجالات الفكر، وقوّلها مالم يسبق لها أن قالت. وأنصبّ الرافد الوافد من لباب عقل الغربيين في بحر مأثورنا من الفكر، وفيه اندمج اندماجاً حتى كأن الدخيل أصيل. فاليونان وأساطيرهم، وشكسبير وأهواله، وباسكال و«أفكاره»، ونيتشه وأقواله، وسائر أدب «الانسانيين». كل ذلك قد صهر في بوتقة الموروث، وأفرغت ذوائبه في أصفى مالنا من الألفاظ. فالتقت ثقافة بثقافة، ولم يعد بينهما شرق ولا غرب، بل الانسان واحدا شاملا يتساءل ويألم ويصارع بلسان عربي مبين.

«السد» نص بطانته نصوص ولغة ودّت أن تتشرّب من اللغة روحها، لعلها تنفذ منها إلى صميم عبقريتها. وأين منها «التناص» فإنه لأقصر وأفقر من أن يفي بحق ثروتها من تداخل الكلام في الكلام ! فليس «الاستصحاب» صفة من صفاتها بل كنه ذاتها. هي اللغة الجمع ينصرف معها الاسم اسماء : غيلان وصاهباء، وميمونة وميارى والذئب والحجارة. أشخاص كلهم أشكال من الرمز، والكاتب «ملتزم له اجتهاده»، تشي بعوالم من المعنى ناصعة يسيح فيها الذهن بلا حدّ. وقد زاد هذه اللغة تدللا أنها، إلى قوة صورها من المجازات البكر، تخاطبنا بأعيان

الأشياء مطلقة من قيود التخصيص، وإنما هي. الوادي والجبل، والعين والسد، والماء والنار، والصبح والليل. «عبارات حبلى بالمعاني[1]» ومعاني المعاني. إن حدّثتنا بشيء أوحت إلينا بأشياء. فتجهر وتهمس، وتعلن وتسر، وعلى الوجهين تجري أبدا ظاهراً باطناً، وكثيفة وكالبلور شفافة. لا غموض فيها إلا كوحي الشعر، يحلمنا بكل شيء ولايقوله. وتعزف على كل أوتار الكلام «مستخبرة» عن مدى طاقتها في الخلق، والمقال، والنص مسرح، على المقام. فتخرج من أفواه المتحاورين متلونة بـألوانهم من حسّ وفكر، متنوعـة الأداء من نثر ونظم وتمثيل وقصّ ووصف وحجاج. تلقائية كأنها شفاهية من عفو البديهة وهي من صبر الكتابة وكد الروية، طيعة وهي في الاصل عصية، عسر قد تياسر. خطاب مغلق هذا النص، وكتابة عصماء أوليس هو «السد الصُلُدُ» يقام من عزّ اللغة في وجه الدهر صرحاً من الفن راسخاً شامخاً وكتلة من الخلق الأصمّ يغالب العدم ؟ والى العدم كانت تريد أن تردنا فرنسا في عهد استعمارها لنا، تنفي وجودنا نفيا وتنكر أن نكون أمّة لها تاريخ وحضارة ولغة وآداب. فجاء «السدّ»، في ما جاء، حجة لنا على ما مضى من مجدنا الثقافي موصولا بحاضر ما تنجبه قرائحنا من فذّالابداع. فأثبتنا بذلك ذاتنا في وجه «الرتة» وقلبنا عليها ساخرين نوابغ كتابها، وقد أذبنا في إنسانيتنا «إنسانياتهم»، وكانت تعتدّ بهم علينا فجردنا استعمارها منهم وتركناه إلا من الطغيان عارياً.

وقد نوّه طه حسين في نقده بلغة «السدّ» وخشي أن يكون الكاتب أحياناً قد حمّلها فوق طاقتها. ولا حدّ للغة إلا ما بدا. والفحل من اقتحم ذلك الحدّ ففتح لنا في كوامن اللغة أبواباً نجهلها. والعربية «شجاعة» كما نعتها بعض نحاتنا القدامى، تحب من فرسان الكلام الناطق الفاتق. وقد أقبل عليها المسعدي يراودها وتعطيه من نفسها حتى أغرته بالتزيّد عليها لعبا معها ساحراً.. وبنا ساخراً. فدسّ فيها من اللفظ ما إذا قرأناه ما شككنا في أنه من قُح قاموسها وهو من محض ابتداعه. فهذه كلمة «الصلندي» تروعنا بحروفها كأنها عاربة عرباء وهي من دارجتنا «الصندي» زيدت في حشوها لاماً. كماكنا نفعل صبية نقحم في صلب الألفاظ أو نلحق بأواخرها مقاطع من الحروف زائدة فنصنع في اللغة لغة بيننا سرا. ومازال المسعدي

1) - من جواب المسعدي على سؤال صاحب «الندوة» - المرجع السابق.

يعبث بنا، وكم يحب أن يخابث في أدبه قراءه، فيذكر في عهد صاهباء دخان السجائر قبل وجودها وصوت المذياع قبل اختراعه. يخرق حجب غيب الزمان ويطل علينا بوجهه سافرا ماكراً فنضحك للنكتة ويفوتنا معناها. ينبهنا إلى أنّه، وإن بدا كمن يخرف بقصة من قصص الأقدمين في ماخلا من الدهر وجبل قاف، فإنما عنّا هنا في المكان والآن في الزمان يكلمنا. تأمل الجبل كما وصف في النص ثم اقرأ : «.... جبل جلاميد من الصخركقطع العذاب تراكم وتراكب، ثم يقوم فيها فجأة كالجدار جانب الجبل عارياً كجنب مقروح، تنشج في أسفله عين ماء باكية تسيل إلى الصخر، فتأكل من أصل الجبل ثم تقع إلى الغور تحته فتتشتت فيه وتضيع كيأس نفس عقيم. وتتبعثر بيوت القرية بين الصخور حقيرة بشرية ذلّة ومسكنة كشتمة في وجه قوة قاهرة أو عار على جمال. ويتباسط فوق القرية على رأس الجبل بساط غليظ من حصى حديد عليه أغربة سود.... فإذا الجبل قافلة هول من أشخاص حجارة.... والأذن تسمع وعين الماء تحكي. وتنشأ الحياة ويتحرك الجبل المأساة وتتحرك الصخرة... فتطأ وتدوس وتتفرقع أوصال الجبل...»[1] تحسبه من مناظر «السدّ» وهو جبل «كسرى» من قرانا، كما رآه أديبنا «المسافر» فليس جبل صاهباء من أرض الخراف بل بعض بلادك. وقيل للمسعدي وقد أقرّ إن سدّه من ذكرى سدّ مأرب كما لاتزال تحدث بخرابه إلى وعينا العربي أساطير الأولين. فإن كان مأرب ففي البدء أما المنتهى فمن وحي هذا العصر المصنّع وما ضجّ به من ذكر السدود، على نهري «الفولغا» و«الدينابر» في ملحمة السوفيات أمس قبل مأساتهم اليوم، وبأودية أمريكا في عهد روزفلت «ونهجه الجديد»، وفي شعاب الألب بفرنسا توليداً للطاقة الجديدة من «الفحم الأبيض».... وبوادي الليل في تونس، سدّ بناه، بإمرة الفرنسيين، البيض من الروس وخلفوا بأرضنا «أعزابهم» من الخشب[2]. هي ملاحم السدود في زماننا هذا التقني تروي الأرض من ضمأ، فتطفي الأوار.. وتصنع من الماء النار، كهرباء تدير الدواليب وتنير العالمين. أفنحن في عهد صاهباء ؟ ولنذكر ما بدا على غيلان وأصحابه من

1) - محمود المسعدي : المسافر
2) - قرية أطفال بورقيبة اليوم.
والأعزاب جمع Isba

الملامح، فأنها ملامح «بناة الصروح» في هذا القرن العشرين. وهل صاهباء إلاّ صورة، مؤسطرة في النص، من فرنسا المستعمرة تربعت، وبيدها «الرواعد»، على جبل ركامنا من تقاليد الجمود ؟ فالليل ليلها جثمت بوقره علينا ثقيلا طويلا. وهل غيلان، على علاّته، الأ رمز قوانا الحيّة من الشباب المستنير بثقافة العصر هبّوا لجهاد «الربّة» مكذبين بإنجيلها، كافرين بناموسها، كاسرين للحدود ؟ ومن نور الإنسان فينا يشعون في ظلامها فيخطون إلى الحرية طريق الضياء. وشاعرهم يصدح :

إنّ ذا عصر ظلمة غير أنّي من وراء الظلام شمت صباحه.

ويدعون الشعب من حولهم إلى أن يقيم من نفسه لنفسه صرحاً يعيد «الخضراء» الى خصبها وإلى الحياة معناها.

ودارت مع «صاهباء» المعارك جولة بجولة ونحن نشيد وهي تبيد، نبني فتصعقنا ونعود فنبني وتعود فتصعق... وانتهى «السدّ» كتابة وقد ضربتنا في 9 أفريل ضربة قاصمة هدّت من صرح ما بنينا. وعظمت على النفوس البلية فغمت وصارت تردد، كميمونة في القصة «أنحن غالبون أم يا غيلان مغلوبون»؟ فكأنها فاجعة من فواجع اليونان ونحن أبطالها، بل مأساة شكسبير ونحن «هملت» نسائل : نكون أو لا نكون. موقف في التاريخ يُعَانَى لامحض تساؤل فلسفي، والمصير معلق بين بقاء وفناء. وظلام «صاهباء» يعم البلاد إلاّ كما لاح لغيلان في آخر قصّته بصيصا من نور الأمل في الأفق النائي. ولكن الشعب أراد الحياة فكان لابدّ لليل أن ينجلي، فطردنا «صاهباء» و«أطل الصباح». كتب «السدّ» في ليل الاستعمار ومع فجر الاستقلال طلع علينا كتابا مطبوعا. فأكبرناه، وقد ثأرنا من صاهباء في التاريخ لغيلان في الخرافة، تعظيما للجهاد وروح من مات فيه شهيدا [1]. ولم يكن من الصدفة أن صحبه في الطلوع ديوان الشابي «أغاني الحياة» ولحق به بعد حين ما كتب الحداد من كتاب «العمال» و«كتاب المرأة». وما قصة الدوعاجي في «سهرت منه الليالي» من الأقاصيص. كلها آثار محجّلة تحمل من ذلك الظلام أو شحة سواد

---

1) – أهدى المسعدي «السدّ» إلى روح الشهيد فرحات حشاد.

ومن ذاك النور غررا. وبها جميعا دخلنا «عهدنا الجديد»، «عهد البناء والتشييد» واندفعنا نقيم الصروح وأقامنا.

وما هي إلاّ أن تعب من الجهاد الأبطال فمالوا إلى طيب العيش حتى أثقلتهم البطنة من تخمة ما أكلوا من عصائد الزقوقو. بل أوشك غيلان، وقد تقادم، أن يتشبه بصاهباء وله بيت وسدنة ومناسك وشعائر وأبواق فينا من الهواتف تسبّح. فاختلفنا وانقسمنا... نسينا صاهباء وما نسيتنا، كانت لنا بالمرصاد ترقبنا ولا نرقبها. كفّت عنّا ختلا، كما كفت في القصة عن غيلان، ثمّ عادت، وقد صارت غربا، تقصف البلاد عن بعد : في برج السدرية بعد الساقية وبنزرت وعلى يسارنا غربا في الجزائر بعد المغرب الأقصى، وعلى يميننا شرقا في مصر والشام بعد فلسطين وفي العراق بعد لبنان وليبيا وغدا قد تضرب ليبيا وبعد غد الجزائر. عادت صهباء أعتى وأمكر وبيدها الرواعد النووية وصوت نبيها، صندوق النقد الدولي، ينذرنا بما قدر لنا ويرسم لنا الحدّ ! «...ما يولد منكم اليوم، غدا نأكل جهده ونمتص دمه، وما حرثتم اليوم إلى أفواهنا من الساعة سنابله... نساؤكم لنا إماء، وأرواحهم مرعى أيها الضعفاء...» و بترولكم لنا نهب وأرضكم حرب. عادت صاهباء فأين اليوم غيلان ؟ بل أين الغيالى ؟ تلك صيحة «السدّ» وصرخة الكتابة. فهل من مجيب ؟

قرأت الكتاب بذاكرتي من تاريخنا ويقصه علينا رمزا. وما أحببت أن أغلقه في ظروفه وهو أدب يتجاوز ظروفه أنّى كانت ليصبّ في أمهات قضايا الإنسان عبر المكان والزمان فألقيته نصا مفتوحا يجدّد معناه مع كل جيل بتجدد الحدثان.

غريب هذا «السدّ» متوحش الجمال كزهرة من زهر الرؤى أكمامها سود وقلبها ضياء. من ديجور ومن نور صفحاته، تحكي أبدا صراع الضياء والظلام، الانسان وقوى الطغيان... والخلق والعدم والفن والفناء. وكذلك يكون الأدب أو لا يكون، مغامرة تروم فيها الكتابة أن...

باريس فانسان. جانفي 1992
توفيق بكّار

السد

رواية في ثمانية مناظر

الإهـداء

إلى روح المرحوم فرحات حشّاد

أخوة وفاء "لإنسان"

م.



مقدّمة المؤلّف

هذا كتابٌ أردتُه صدقًا لا يختلف معه وجه الحقيقة في الوحدة والسرّ، عن وجهها في الجماعة والعَلَن. كتبتُه في عهد انفرادٍ وتأمّلٍ، وامتحنته بعد العِشرة والعمل مع الناس سنوات، فلم أَلفِه في جوهره تنكّر لي، ولا أنكرتُ منه. فأخرجته على علاّته.

وبعد فهو كتاب الايمان يَسَع من الحيرة أقصاها، ومن الشكّ أقساه.

وهو كتاب الايمان بالانسان، لأنه كتاب الفناء في الخلق، في الله...

سبتمبر 1955 م.

أشخاص الرواية

مَيْمُونة. : امرأة
غَيْلاَن : رجلٌ، كائن زائف
مَيَارى : خيال وطيْفٌ وحبٌ وجمال
بغلٌ ذكيّ
ذئبٌ ذو عُواء
أطيافٌ وهواتف
ووادٍ وجبل.

الفـــاتحـــة

«ليس الشعر في أن تقول كلّ شيء، بل هو في ان تُحْلِمَ النفسَ بكل شيء».

(سانت بوف –Sainte-Beuve)

المنظـر الأول

على منحدر جبل اخشب غليظ حزيز، نباته كالابَر وارضه ظمآى، وغباره كثير وسماؤه صفراء.

آخر عشيّ.

امرأةٌ ورجل يصعُدان في عقبة يجرّان وراءهما بغلا، فتنتهي العقبة عند كهف، فيقفان ويوقفان البغل.

هي

انظرِ الجبل.

هو

(يمسح عرقه عن جبينه ثم يرفع البصر ثم يقول)

قد نظرت الجبل.

هي

فماذا سمعت ؟

هو

المنظورات لاتُسمع. المنظورات تُرى او لا تُرى.

هي

(ترفع بصرها وتنظر طويلا ثم تقول)

فماذا رأيت ؟

هو

إنّي أرى جبلاً. فِيمَ السؤال ؟

هي

إنه جبلٌ... وليس بجبل.





هو

إنه جبل وليس بجبل !.. ماهذا المنطق الجديد ؟

هي

منطق الجبال يصغر عندها الانسان.

هو

هذا عبث لسانك قد عاد إليك.

هي

ألا نحطّ عن البغل ؟

يقبلان على البغل يريدان ان يحطّا عنه. فاذا هو أيضا رافع رأسه كالناظر الى الجبل.

هو

(للبغل)

أوَ أنْتَ ايضا ؟

هي

لايا غيْلاَن. إنما هو أنْ ثقُل الظهرُ فامتدّ العنق وارتفع الرأس. كذا الدواب جميعا إذا انقض الحملُ ظهرَها...
وكذا العباد.

غيلان

تعْنِين ؟

هي

الصلاةَ والدعاء. تُنقِض الاعباءُ ظهورَ العباد،

فتمتّد الاعناق وترتفع الابصار والرؤوس، وتكون الصلاة ويكون الدعاء...

(تبتسم)

وانت إلـه البغل. بل انظر اليـه يـدعوك. افلا تفهم الادعيـة الصامتة ؟

تُقبل على البغل تحطّ عنه ويُسْعِدها غيلان. فيحطّان عنه خيمةً وأوتادًا وخُرجًا بالمتاع كمتاع المسافر. ويلقيان ذلك كلّه على الارض. ثم تجلس هي على حزمة أوتاد. وتمدّ يدها فتتناول دلوًا في جملة المتاع، وتجعل تعبث بها، وهي مطرقة ساكنة.

ويجلس غيلان ويُطرق ايضا. ويبقى البغل على رأسيهما واقفاً مطرقاً... ثم تتكلم هي فتقول :

هي

ها قد وصلنا يا غيْلان.

غَيْلان

نعم. لقد وصلنا وانقطع الرحيل.

هي

ولكنّا وصلنا يا غيلان آخرَ عشيٍّ. انظر الشمس تغرب.

ينظر الى الافق الغربي أمامه كأن الشمس فيه لهبٌ من نار. ويمسك عن الكلام، كأنما اصابه كلامها في الاحشاء، ساعةً ثم يقول :

غيلان

ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال وحلَلْنا بما كُنّا نتمنّى، وانتصبنا وقرَّ القرار...

(تهمّ بالكلام فيقول ويومىء بيده)

لا. لا تقولي شيئاً. فانك ستقولين إنّك تكرهين معنويَّ النُزُول. او تقولين إنه ليس اكذب من هذا القرار.

هي

لا، يا غَيْلان. ماهمٌّ لساني بشيءٍ من هذا. إنّما أردت أن أقول : حلول الدُود بالثمرة، فالثمرة إلى التعفن والفساد.

غيلان

تقولين يامَيْمونة خطأً عظيماً. لأن الخيال لايُؤكَل.

ميمونة

قد يكون قولك الحق... بل هو الحق. نعم. الخيال لايدود ولايُؤكَل. الخيال آكلٌ أكول جَرَّاف. يأكلنا نحن. الخيال من أكلة البشر.

غيلان

لنجعلْه ثمرةً من أكلَةَ لحم البشر يأكلها الدَودُ وتأكلُنا أكَل المنهوم. هل تدرين ما تَعنين ؟

ميمونة

نعم يا غيلان حبيبي. هو ما قلت : ان الخيال آكلُك وانت آكله. فعلٌ واحد وزمنٌ واحد... ولكنّي لا أدري أيّكما يريد

الانتقام من الآخر ولا أعرف لماذا. فهو يسكنك ويُلحّ الى حدّ الاضجار، وانت تربّيه وتملؤه شحماً كخروف أُضحية. ولا اعلم ما تريدان. إنكما بغلان حَرونان.

غيلان

قد نكون بغليْن حرونينِ، ولكنّا مع ذلك صديقان ولايريد احدنا بالآخر شرًّا. ولن يأكلني ولن آكله. بل سندعوك معاً حتى تُؤْمني...

ميمونة

أومنُ بماذا ؟ ان كان ايماناً بالمرمر الصلب والخطّ المطلق وعود الحياة اليابس، فقد آمنتُ منذ زمنٍ طويل.

غيلان

لا يا مَيْمونة. بل الكفر بالنواميس والحدود والعراقيل، وانكارُ العجز والاسلام، ونفيُ العدم. هو الايمان بالفعل... وأمّا خطوطك المُطلَقة، ومرمرك الصّلب، وحساباتك، وما استَبدَّ عليك من سجون النفس والقوّة والعقل، فسنجعلها دُخاناً نرسله في السماء ارسالَ المدخّن دوائرَ تذهب هباء، ظريفةً خفيفةً كعينيك زرقاء...

(يهتف هاتف في صوت غريب لا انس ولا جان)

الهاتف

تدعو ماذا الى ماذا ؟

إلى أيّ إيمان ؟

آيمانك بنا ؟
ام ايماننا بك ؟
قُلْ، قل لنا يا هذا ؟
تدعو ماذا الى ماذا ؟

(ثم يسكت فيهتف هاتف ثانٍ بصوت كصوت الاول ولهجة استهزاء :)

أنا الانسان...
مادام الجدُّ
مادام الجَهدُ
ماشتّد العزمُ
وَليدُ النفسِ
وَليدُ النارْ
لا أبالي...
سواء عندي مآلي
الى النعيم
الى الجحيمْ
الى العذابْ
الى الثّوابْ
لاابالي...
انا الانسان.

(يتناظر غيلان وميمونة)

غيلان

إنّي أسمع هاتفاً.

ميمونة

وإنّي أسمع ماتسمع.

(يتضاحكان)

انّه وحيٌ وانّا نبيّان.

غيلان

أو هو آلةٌ سيبتدعُها النّاس يوماً ويسمّونها المذياع أو الهاتف.

(يهتف هاتف ثالث :)

من فوق الجبلْ
أشرفْ على الوهدِ
أطلق للبصرْ
ثم اخرُج من الوادي
الى وهْد القَدَرْ
هو كشفٌ ؛ انه هو السرابْ
يخرق الأرض نوافذ
يفتح الابواب.
يُفسح الافقَ عليك
يُغري بالذّهابْ.
لكنِ القحط والنّارْ
من ورائهْ.
ولظى حرِّ الأُوارْ
تحت مائهْ.
نارٌ منصبَّةْ

وخَصْمُ فؤادْ.
فلا تعرض للربَّهْ
ولا تقربِ الوادْ.
فهي صَيْهودْ
ورعدُ رُعدودْ
وفلقٌ جُلمودْ.
ذاتُ الرواعد الربَّهْ.
فادعُ ذات الرواعدْ
وسبِّح لصاهبَّاء.

(تسكت الهواتف)

ميمونة

ما صاهبَّى يا غيلان ؟

غيلان

لا أدري. اسألي الهاتف.

ميمونة

أيها الهاتف، ما صاهبَّى ؟

الهاتف

لا تحرِّفي. قوّمي الاسم هو بالمدِّ، لابالقصر.

ميمونة

قد أصلحت : صاهبَّاء. فما صاهبَّاء ؟

(تعود الهواتف في صوت رخيم تتغنى :)

انها قرنٌ طويلْ

قرن ثور، قرن فيلْ
هَلْهَبَا هَلْهَبَّا،
سُبِّحت صَاهبَّاءْ.

تتجسم الاصوات شيئا فشيئا فتبرز أطيافاً، كأحلام النائم في ليلة صيف خِفافاً، فيدور بها الرقص حولهما طوافاً.

رَبَّةُ اليُبْسِ.
رَبَّةُ القحط.
تسكن الجبالْ.
الصخرة الربَّهْ.
هَلْهَبَا هَلْهَبَّا.
سُبِّحت صاهبَّاء.

(تذوب الاطياف كتريُّع السراب)

ميمونة

أرأيتَ يا غيلان. الماء إثمٌ وسيِّئة.

غيلان

هذه الاطياف لطيفة. إنِّي لأجِد ريح عود وندّ. لعلّهم يتطهرون بالعود لئلاّ يقربوا الماء.

ميمونة

لا يا غيلان. انهم يتطهّرون بالنور. بالشمس. بالقيظ. بالنّار.

غيلان

لأرى المغتسل بالنّار طاهراً.

ميمونة

هي الالفاظ تغرّك. انهم لايغتسلون بل يتطهّرون.

غيلان

المحترق غير المتطهّر. انّي أراهم فحماً.

ميمونة

ليس أطهر مُمّن احترق فصفّتْه النّار.

غيلان

ماغنّت هذه الاطيافُ الهواتف ؟ ماترين ياميمونة ؟

ميمونة

هي ألْسِنَة نبّي القوم.

(بعد توقف قصير)

هل جُلتَ فيهم ؟

غيلان

ما ذهبت نفسي الى شيء من ذلك. وما هَمّي منهم ؟ - إنّما ذهبتُ في الوادي فانحدرت فيه، ورأيت الهاوية يغور في غَيْبها ماءُ العين... وقام السُد الى عيني. سيكون جميلاً رائعا بديعاً اذا ما بنيتُه ياميمونة.

ميمونة

دع سدَّك المستقبَل وحديثَه. فانّه لا يلحقك رجالك وبنّاؤوك إلا غداً.

غيلان

ألكِ حديث خيرٌ منه ؟

ميمونة

نعم، خير وأروع وأهول. للقبيلة نبيّ.

غيلان

نحن هنا كآدم وحوّاء وقد تخلّصنا من وُشاة الجنّة وفضوليي الملائكة وعيون الآلهة. ولسنا في حاجة الى الانبياء. إنما تُرسَل الانبياء الى وُلدِنا من بعدنا.

ميمونة

ليس اكره إليّ من تشبيهنا بآدم وحواء، وليست ولادة البشريّة من شأننا. ألاّ تنسى البدأ والخلْق ؟ اسمعْ حديث القوم ونبّيهم فهو أهمُّ عليك...

غيلان

إذن أسمع... ولستُ بآدم ولستِ بحوّاء. هاتي حديثك.

ميمونة

ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسِرتُ وجُلت. فكأنَّ الوادي وادي البَرْص او وادي الجذام. وانّما كنت أنا البرصاء. فانه لم يقربْني احدٌ ولا مسّتْني منهم يد ولا دنا منّي كلام. فكأنّي أجول في شُرود شديد. وكانت اجساد القوم متوتّرة كجهد الفارِّ من سجنه... ومع ذلك فقد سرتُ فيهم حتى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم. فأنا عند آخر بيت اذ رايت جارية. وكانت رأتنا عند

وصولنا الى القبيلة.

وكانت هناك مستلقيةً على ظهر صَفَاة الى الشمس. وسألتها فقالت انها تتطهّر. وكانت لا تكاد تكون مُعْصِرًا، ولكنّي رأيتها مفتّحة الى الشمس قائمة النهد رخوةً، كالذّائبة لذّة. وهي التي حدثتْني عن صاهبّاء والنّبي. وأرتْني الربّة هناك على رأس الجبل. ولكنّي نظرت فلم ار شيئا فقلت : لا أرى ربّة ولا ربًّا. فقالت. لا بدّ من عشرة أيّام صياماً عن الماء لتحتدّ عينك وتستقيم لها الرؤية. فقلت : لست بناقة حتى أصبر عن الماء هذه المدّة. ويئست من رؤية صاهباء.

غيلان

والنّبيّ ؟

ميمونة

لم أره كما أني لم أرَ الربّة. وانّما قالت لي الجارية : لو رأيته !.. ان له جلداً اغبرَ اللّون قد شُدَّ على عيدان عظامه كالدلو تمَطّ شديداً. ووصفته لي حتى تصوّر النبيّ لعيني كطبل مُدَّ جلده مدّاً شديدًا. ولكنّها زادت فقالت : لم يَرَ النّاس أشدّ هزالا منه. فافسدتْ عليّ تشبيهه بالطبل، لانه لم يَرَ الناس ولا ثعلب الحكاية اشدّ من الطبول سمنا ولا أضخم منها جثّة.

غيلان

وماذا يقول القوم عن السّد وعنّي ؟

ميمونة

ما أقلَّ صبركَ ! وكيف أعلم مافي نفوسِ الصُمِّ البُكم ؟ إن شئتَ

ان تعرف رأيهم في سُدّك فاصبر حتى تُنطِقَهم صاهباء. امّا الآن فلا لسان غير لسان نبيّهم. وقد حدثتني الجارية عن النبيّ ولسانه، وأنه كثير الاصوات لاتُحصى هواتفه. وقالت : ولسان النبيّ واصواته رحمة. لأنّها تنذر كلّ حَيّ بما قضي له من شأن في حياته وترسم له حَدَّه. ثم قالت : فلتصلّي يا هذه لألسنة النبيّ وأصواته. ولم أصلّ لنبيّ ولا لسان، ولكننا سمعنا الساعة يا غيلان اصواته... وإني لأرَاها تنذر...

غيلان

ان كان انذارًا، فَلِم جاء في ما سمعنا من الرّطانة ؟

ميمونة

(هازئة)

لو جعلتَ مدرسةً لتُعلّم الآلهة البيان ؟

غيلان

انهم يخشون إن تكلّموا لغة البشر أن ينفتح لنا في ألوهيتهم فنُصِيبَ شقًّا. فهم يفضّلون ان يترجم عنهم الانبياء...

(يطرق ساعة ثم يقول :)

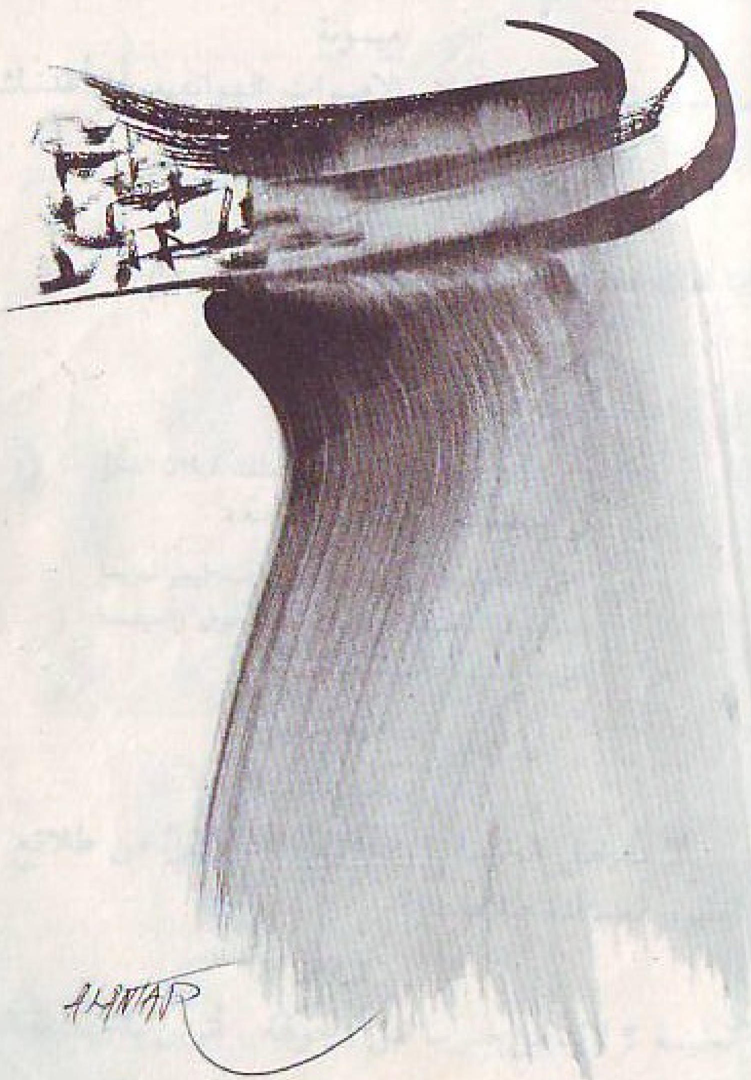
لكن دعْنا.

ميمونة

ماتقول يا غيلان ؟

غيلان

(محتدًا فجأة)



أقول ان أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهادِ سرابَها، ولبسوا هزالَهم كما تُلبس الخِلَع السلطانية، واتّخذوا لساناً لنبيّهم كثيرًا كألسنة السعالى، وخشعوا لربّة خافية وقالوا : العطش والقحط، وليَنْتَفِ الماء. يحسبَون أنهم وحدهم يقاسون الظمأ واليبس والقحط، ويحبُّونها ويتّخذون أرواحَهم منها. ولكنّي أنا أيضا أحبها وأقاسيها... وإنّما هم قوم أفعمت نفوسَهم مياهٌ كاذبة، ورطوبة كاذبة، وسماء كاذبة. وإن نفوسهم لنفوسٌ باطلة الكيان كاذبة. فرُّوا من الفعل عجزًا وبطلانَ نفس. بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب فتغور مياهها وحياتها في الهاوية بمُنقطَع الوادي. وانظري مياه المطر لاتسحُّ الأعلى الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تسيل فتنحدر فتلحق مياه العين فتذهب فتغور في الهاوية بمنقطَع الوادي. ولم يخطرْ لهم ببال أن يقيموا سدًّا فوق الهاوية فيحبسوا ماء العين ومياه المطر والجبل... واني لأرى سدّي بين يديَّ وأرى المجاري. وأرى الانابيب ممتدةً فوق الهاوية جسرًا حديدًا يهزأ من الهاوية متدافعاً الى الوهاد.

- واني لأرى المياه متدفّقة غالبة قاهرة، تتدافع اليك تدافُع المتمنّى يُزف اليك بنفسه. وليكن الخلقُ ولتكثر الولادة !... هذه الارض المتجعّدَة المغبار كالعجوز الفاجرة، لأُحبلنّها ماءً، فاملأنّ بطنها فأخرجَنَّ حياة. وستَرينّها يا ميمونة يومئذ، وسترينَّهم معرضين عن صاهبّاء والشمس والقحط، ينبذوها في العراء. وسترين الجارية يومئذ يقوم نهداها شهوة تتبرّج للماء،

ويشملها الماء ولاتنفتح لشمس. وسترينَّهم يطرحون شمسهم في مياه السدّ الغامرة الهادئة. ويذهب الماء بصاهباء وقحطها ونبيّها....

ميمونة

قد سمعتُ كلاماً ككلام الاصوات الهواتف. أَوَ أعدتْك يا غيلان ؟

غيلان

اما تلك فلا أرى لها غير بائع بَبَّغاوات يُتاجر بها.

ميمونة

انّي أراها تنذر يا غيلان...

تملك ميمونة خواطرها، ويملك غيلان الفكرَ في سدّه. وينعزل عنها وتنعزل عنه...

ويخطر فوق رأسيهما طائر غريب فيمر سريعا اسود، فلا يطرفان. فيعود فيمرُّ فوق رأسيهما سريعاً أسودَ. هامةً او صدى...

ميمونة

(مقشعرّة)

ألا ندخل الخيمة ؟ انه ليس أكره إليَّ من طلائع الليل الطيور الممتلئة ظلاماً.

غيلان

الخيمة ؟ لابُدَّ من ضربها قبل دخولها... أترين يا ميمونة التشاؤم والطيرة ؟



ميمونة

(بصوت خافت ونفسها الى غير ما تقول)

التشاؤم والطيرة ؟

(تقوم وئيداً وتقصد الى الخيمة تريد أن تضربها)

غيلان

لا بدّ أن تكون انقلبت الاصوات الهواتف طائرًا. او كأن طيور هذا الجبل اذا ماتت لاتتعفّن ولا تفسد، بل تجفّ وتيبس كالقديد. ويُتّخذ منها لأمثالنا كالفزّاعات تُنْصَب في الزَّرع.

يقوم غيلان. فيعود الطائر ويمرّ أمامه ويصيح صيحة ثقيلة سوداء كالوحل. فيضربه ضربةً تطرحه على الارض. ويضحك الطائر. ويَغمّ الدنيا شيء من الظلام قليل كالغيْبة او كالبُحّة.

غيلان

دعي يا ميمونة الخيمة.

(يهمّ بالانصراف)

ميمونة

الى أين ؟

غيلان

نطلب فرجةً وفُسحة.

يذهبان فيبقى البغل وحده. ثم يخرج بعد ساعة من وراء حجرة حمراء حيّة طويلة غبراء، فتتثنى ساعةً حول الطائر مطروحًا وتحفّ حفيفًا.

ثم تنشب فيه انيابها، ثم تذهب به تجرُّه. ويسمع عواءُ ذئب ثلاثاً طويلات كالنحيب. ثم اذا وقع اقدام قوم قادمين كضرب الطبل يرجّ الارض رجًّا. كالجيش العظيم وليسوا جيشاً... ويرهف البغل اذنيه. وتنصبُّ ظلمات الليل...

المنظر الثّاني

يدخل جماعةٌ من الرهبان قَوْمة صاهبَّاء. في خشوع ذُلّ ومشية قهقرى. ستّة وفيهم مشعل وسابعهم طبل. ثم ستّة وسابعهم اناء ماء. مشتملون ببرانيس أسباط، وليس يبدو منهم الأ الرؤوس ناتئة كالعناصل وقد نبتت في قللها خصالٌ من شعر سوداء، مرسلة كضفائر النساء، وسالت منها اللّحى غزيرة كثيفة شعثاء. اولئك قومة صاهبَّاء، وسدنةُ بيت النار والماء. يدخلون فيظن البغل انه المسقى. ولكنهم يجعلون الماء امام الكهف وسط الفناء. ويستديرون حوله، وعين البغل مشتهية ناظرةٌ حيرى. ثم يبتدىء التّرتيل ويبتدىء الدعاء. وتقوم الغوغاء. فتسير الهوينا :

سِحْرُ ماءِ الهَبَّاءْ.
سُبِّحَتْ صَاهَبَّاءْ.
هَلْهَبَا هَلْهَبَّاءْ.
سُبِّحتْ صَاهَبَّاءْ.

ثم تسرع وتشتّد. والاصوات تحتّد. والاعناق تمتّد. والطبل يهدهدْ دُعاءً في رطانة، وكلام بعيد المعنى :

ضَمَـــوحٌ قَـــذِرْ بِضَـــوْءٍ غَمِـــرْ.
سَهيـــــــدٌ يَشِرْ رِمَـــال الـــدِّمـــاحْ.
شِضـــــاضًا عَمِدْ كَهِيـــبَ المَـــرَدْ.
تُمَفِرُ طُـــــــرِدْ بِطَخْـــر الكِـــرَاحْ.
لِكَيْـــفِ بَـــرِمْ لِـــــرَفْضٍ قَدِمْ

لِمَــاضٍ طَغِــمْ لِــدأْفِ الجِـرَاحْ.
هيَمْـرُ ضَخِـلْ وَقَــافٍ مُغِـلْ
يُنْبِرِي الــدَّغَــلْ بِكَسْفِ الـرِّمَــاحْ.
فَهَاتِ الصَّلَنِــدي وَدَوْفِ الـريَــاحْ.
بُجُبءِ الــرُّويْدي وسخْــط الضِّـرَاحْ.

يسكتون فينْفَلِقُ الطبل ويقوم صوت صاحبه كالزبانية :

سِخْـرُ مـاء الهَبَّاءْ
سُبُّحَـتْ صـاهبَّاءْ
هَلْهَبَـا هَلْهَبَّـاءْ
سُبُّحـت صـاهبَّاءْ

فيجيبُونَهُ في صوتٍ همْهَمَة :

هَـدْهِـدِ الهُـدْ واسْــدُدِ السُّــدْ
وانْقُــضِ المُـــدْ واصْعَقِ الــرَّاحْ

ويعود الى طبله يُرْعِده، والى صوته يرسله سريعا ضخماً شديدا، يتثّنى كموجة غيظ :

صغــاب الهَوَادمْ وصخْــرٌ صَلاَدِمْ
مِــدْرًا دَافِــقْ ظَنْـوَى غَــافِـقْ
بَرْكُمُ الضَّنْــاهِمْ كَعَفْرِ الجــلاَهِمْ
غَمْيًا دَافِــــقْ فَضْوَى غَــافِـقْ

ويَمسُّ الصلاة والدعاء مثلُ اللهب. وتتحرك الريح وتخفق. وتقوم البَرَانيس فتهتزّ. وتأخذ في رقصٍ وايقاع، ورعدٍ وارجاع. حوافر خيل ووقع

جموح. كقَسْوة الصخر او شِدةِ الروح.

وتتعالى الصيحات بـ :

«هَلْهَبَا هلهبَّاء سبّحت صاهبَّاء»

وتنقبض الوجوه، وتنتشر الشّعاف كالظلمات، وتجعل البرانيس تغربل وترحي، رفيفَ «الطائر الميمون»، كأنّها سرابٌ مجنون... ويقول البغل :

البغل

عواءُ الذئاب يُسْتَجَاب ام لا يُسْتَجاب ؟ سأسأل غيلان ربّي.
لكن أذئاب ؟ أم أطيافُ خالي العصور في تيْه العذاب ؟ أم كلاب ؟ أم صخورٌ وأمواجٌ واضطراب ؟

ولايهمُّ الرهبانَ ماتقول البغال. فهم في شدة الغيظ وعنفوان اللّهب. يضربون الصدور ويحنون الظهور. والطبل يُدَمْدم، واصواتهم تُهَلْهِبُ وتهمهم. يدعون صاهبَّاء. يسألون للماء النار، وللسّدود الدّمار، وليَديْ غيلان ان تُبَّا. ولا تبطيء بالاجابة صاهبَّاء. فيحترق ماء الاناء. وتتصاعد روحه، فاذا حفيفٌ، وجوهرٌ نارٌ لطيف، كعيْن الآل خَفيف. فتسكن البرانيس، ويخفت الطّبل، ويركعون لصاهبَّاء. وتتباطن الاصوات ويهمسون حمداً :

مَـرُوتُ عَــذَابْ أكِيــلُ تُــرَابْ
علَـى قَـوْس قَــابْ مــن مُفْتَنَــاهْ
رَمُــوضُ مَطَــاحْ عليـه بَــرَاحْ
وسَبْــعُ رَصَــاحْ فــي دَوْفَنَــاهْ

ثم يقومون، ويتحرّك الطبل سبعــاً في مثل ارتعاد العربِدِ. ثم يختمون بالهمس :

كِسَفْطُ الغُرَبْ   رقُوفُ الصَّلَبْ
فَانِي الدَّيَاحْ
مُنْطَاءَ للِصَّبْ   يَنْبُو ويَنْكَبْ
غَادِي الجِراحْ
يَاهِلْهِلَ الهَبْ   ياطالِبَ الرَّبْ
هَذِي القِرَاحْ

ثم يخرجون ستة وسابعهم طبل. ثم ستة وسابعهم نعيق البغل. ويتركون اناَء الماء، تخفق عليه روح الماء صافيةً زرقاء.

ويبقى دويُ «هَلْهَبَا هلهبّاْ»، مُعَلقاً بعدهم في الهواء كدُخَان بَخور.

ساعةً. ثم تسكن الارض والسماء، فاذا ليلةٌ لينة رزينة ملاى، كحَمْل حسناء حُبْلَى، وشفقٌ كالفجر وشفة الليل عذبة، ونوم كالدهر يُفعِم الليلة، وخلوٌ كالنجم والنجم نعمة.

ولا يعود غيلان وميمونة الا وقد ذهب من الليل...

المنظر الثالث

بفناء الكهف وقد بدت فيه الخيمة مضروبة.
الساعة اول الفجر، وقد انتشرت أشعّةٌ نديّة في سماء رطيبة كالعجين، ولاحت الصخور والحجارة ليّنة ورْديّة.

تخرج ميمونة من الخيمة في مبذل كسكب الماء رقيق شفّاف. وتجلس على صخرة أمام الخيمة.
ثم يخرج غيلان بعدها.

ميمونة

(ناظرةً الى السماء والفجر)

هذا الفجر يا غيلان، وهذا النور كأشهى الطعام.

ينظر غيلان الى السماء والفجر ولا يقول شيئاً.
ثم يجلس قرب ميمونة وينظر الى الافق الشرقيّ.

ميمونة

لقد رأيتُ الليلةَ رؤيا.

غيلان

«يا أبت إني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»

ميمونة

لاياغيلان. ليس هذا.

غيلان

كنت أحسب أنك نسيت كل توراة وقرآن وانجيل. أمْ تَرَيْن من ظريف المزاح التشبُّه في الفجر بالانبياء ابناء الانبياء ؟ هم يرون

الرؤى ليُلقَوْا في الجبّ ويكون لهم شأن مع امرأة العزيز فيصيروا انبياء. أمّا انت ؟ – الفجر ساعة جِدّ تكره المزاح.

ميمونة

ليس بمزاح.

غيلان

لكن ما شأني وذاك وما الدّاعي الى التبكير بذكره ؟
أنا لا أعبر الرؤيا.

ميمونة

لانه حقٌ أني رأيت رؤيا...

غيلان

هذه البلاد ما أكثر الاحلام بها والارواح ! وما أكثر الاصوات والانبياء ! دعينا يا ميمونة، ولننتظر أصحابنا. فانهم عمّا قليل بارزون من اثناء الارض طالعون مع الشمس من الأفق.

ميمونة

... ولأنني لم أرك في رؤياي ياغيلان.

غيلان

اذن فما همّي من رؤياك ميمونة ؟ أدخليها في قرآن او إنجيل او بيعيها نَبيَّ القوم.

ميمونة

ماهمّني من رؤياي إلا خلوها منك...
كأنك تخاف ان اقصّ عليك رؤياي ؟

غيلان

(هامًا بالقيام)

ان كان لابُدَّ أن تقصّيها، فهل لك ان أدعو الاصوات الهواتف تسمَعْ اليك.

ميمونة

أنْ تسمع الاصواتُ أمرٌ عُجاب. ادعُ نَرَ.

غيلان

....

يريد غيلان ان يدعو الا انه لايخرج من فيه صوت، وماهي الا حركة المنادي يفرغ صدره ويمتلىء حلقه ولا يكون تصويت.

ميمونة

مالك ؟ ألا تدعو الاصوات ؟

غيلان

(متحيّرا مضطرب النفس)

لم أقدر على التصويت. انادي ويتحرّك الصوت في حلقي ثم كأنَّ شارباً يشرب الصوت على فمي.

(يحاول ثانيةً ان ينادي)

هل سمعت شيئا يا ميمونة ؟

صوت هاتف

انك العاجز. إنك العجزْ.

(يرتعد غيلان ويقفز)

ميمونة

لا يا غيلان، ما سمعتُك ولا استطعتَ النّداء. وانّما سمعت الهاتف. فاذكر ياغيلان قولَ الحسناء عابدة الشمس : «ولسان النبيّ واصواته رحمة. لأنها تنذر كلّ حيّ بما قُضي له من شأن في حياته وترسم له حدّه».
هذا ياغيلان أول الحدّ.

غيلان

....

(في شيء من الحدّة)

ليس في الحدود والعراقيل حدٌّ واحد ولاعقال واحدٌ يعجز عن كسره العزم. قُصّي رؤياك ميمونة...

وبزيد فيقول : «وأما الاصوات الهواتف ونبيُّها وصاهيّاؤها فعليها لعنتي لعنة الانسان». إلا ان الصوت يموت ويتبدّد في حلقه، او يموت في صدره، فلا تُسمع لعنتَه.

.... عجّلي، قُصّي رؤياك.

ميمونة

إنّي رأيت السدّ.

رأيته أوّل رؤيتي عن بعيد، فاذا هو قطعةٌ من البياض المتين، متعالٍ عظيم وقائم مستقيم، كالمجرّة في كبد السماء.
ثم دُفِعتُ إليه حتى قام في وجهي، وعُلّقتُ فوق الهاوية مغيض الماء. فنظرت ويلاً شديداً وهولاً. ورأيت الماء غائرا في الهاوية،

أصواتاً مشتبكة كأنها أصوات الهاوية، واقعا فيها كالحلم او الخيال او الامنية تقع في الابد فتغيض فيه... ولا يردّهُ السدّ. ولا يحبس منه شيئاً...

غيلان

(هازئاً)

وهذا أفظع ما يمكن ان يصيب سداً : ان يكون سدًّا ولا يحبس ماء.

ميمونة

... ولم يكن السدّ من حجارةٍ وحديد، ولا من جصّ وطين...

تتوقّف ميمونة كالمترددة في الامر تقول أم لا تقول، او كالفازعة. لحظةً. ثم تقول بلهجة متّدة :

لقد رأيت امراً بديعاً عظيما ومفزعا هائلا ليس فوقه هول. رأيت سدًّا من جماجم موتى قد رُصّفت اكمل ترصيف...

غيلان

(هازئا او جادًّا)

منذ القِدَم كان الموتُ الكمال ياميمونة : كمالَ الترصيف والترتيب. كمالَ النظام. وانما التشويش في الحيّ وفي الحياة.

ميمونة

... ورأيتُ الماء جاريا من الجماجم سائلا من ثقاب العيون منصبًّا من غيران الافواه والمناخر كالمخاط او كالغراء... ولم أر هولاً أهول من بقبقة تلك المياه في جماجم الموتى، وصرخت

روعاً : «يا غيلان أغثْنِي». فأجابني هاتف يقول : «تدعينه ولمَّا تُوافنا جمجمته». ثم انصبَّ عليَّ شيء ثقيل قذرُ، مثل الكابوس، فدكَّني دَكًّا، وصحت صيحات الفزع والالم. ثم إذا الجبل أمامي يتحرك وتمتدّ يداه، فيدفع الجماجم دفعاً دَوِيًّا. واذا الجماجم تنفلق في شبه الصيحة وتنفرق، وتطاير كقصف الرعد يفتضُّ سماءً بكرًا. واذا الجبل يتقدّم نحوي وشعوره عليه تخفق أشجارًا شهباء. واذا آلاف الطيور السوداء تخرج من تلــك الشعـور، فترتمي كحجارة من سجّيل في الهواء. ويعمِّي الجوَّ غبارٌ من كبريت وغيوم صفراء. وجعلت يـديَّ على وجهي وصرخت صرخـة الحرقة. وذهب الجبل فانتفخ وانتشر وترامى، فاذا هو فجأة يقع على السهل والوادي فيد كّهما دكًّا ويرحيهما رحياً...

واستيقظت... فاذا هذا الفجر علينا، واذا يدك على خدّي ترعى نعومة وجهي.

غيلان

(بعد إطراق قليل. في شيء من القلق)

لِمَ أبطأ أصحابنا والعملةُ والآلات الى الآن ؟

وتنفجر الشمس فتثبت أشعّتها في الافق الشرقي
كاوتاد من نور قائمة صلبة، او كأذني فرس أزهف
يستمع صوتاً بعيداً.

غيلان

(وقد فكَّ طلوع الشمس عقاله)

هذه الشمس ! وها أصحابنا وها الآلات ! جيشا من السواعد

والحديد والا يدي والدواليب والعزائم والصدور !

ميمونة

(مشيرة الى إناء الماء الذي كان تركه)
(بالفناء سدنة صاهبًا، وكأنَّهُ لا يزال)
(يخفق عليه طائف من النار)

وهذه النار لاتنطفىء !
أنحن غالبون ام ياغيلان مغلوبون ؟

غيلان

(يقوم فرحاً وعزماً)

قومي قَبِّلي ياميمونة جمجمتي. ياميمونتي ويا شكِّي وحيرتي.

تقوم اليه فتقبّله ويقبّلها. ثم يدخلان الخيمة
فيلبسان ثيابهما ثم يخرجان فينحدران في العقبة
ذاهبين نحو الرجال والآلات الطالعة مع الشمس.
ويبرز رأس البغل من وراء صخرة يحرّك فكّيه.

المنظر الرابع

بنفس المكان، بُعيْد انصراف ميمونة وغيلان.
حجراتٌ ثلاث تتحرك فتتصوَّر قليلا قليلا جواري ثلاثا، كما يتصوّر الطين في يد الخزّاف. ثم تتحرّك كالنوائم تستيقظ وتُزيحُ النوم والغطاء. وتتسلل الحجرات من النوم والسكون متثاقلاتٍ متثائبات. ويسقط عنْها غطاء الغبار، فتقوم وتفتح ابواب السمـاء، وتنحيّ عنهـا سجف الغيوم، وتتمشى قليلا ثم تدعو بشراب الفجر وطعام الصباح. ويتساءل البغل : ماعسى أن تأكل الحجارة في فطور الصباح ؟

الحجرة الاولى

(فتاة ليّنةٌ حمراء، شعرها كالفجر)
(وعيناها سماء.)

ما رأيتُ أغرب من شأن هؤلاء الغرباء.

الحجرة الثانية

(وهي التي كان غيلان جالساً عليها.)
(فتاة كالأولى، لكنْ لالينة ولا حمراء،)
(بل صلبة شديدة، هاجرةٌ في صحراء.)

وما الذي نعلم عنهم ؟ أنا لم أر شيئا. أنا لا أعرف منهم الأ الاعجاز.

الحجرة الثالثة

(وهي التي كانت ميمونة جالسة)
(عليها. فتاة لينة حمراء، كالاولى)
(اختها الكبرى.)

لعلَّ بني آدم يجهلون التصلُّبَ واليبس والشدة والقوّة. فاني لأجد عَجُزَ هذه المرأة مسترخيا أيَّ استرخاء. وإني لاستقذر اللين والشحم الاسترخاء.

الحجرة الثانية

كذا البشر جميعا يا ديَادَا. يكثر أنْ يُثقلوا أحمالهم بالفضلات والزوائد التي لا تنفع، من لحم ولين وعقل وشحم واسترخاء وماء... وليس التصلُّب سهلاً ديَادَا.

الحجرة الثالثة

(للحجرة الاولى أختها)

وكيف يمكن او يطيب للبشر النوم واجسادهم مسترخية هكذا ؟ لا بُدَّ ان يكون نومهم نديًّا ثقيلاً غراء.

الحجرة الاولى

البشر لا ينامون أبدا. وليس الا أن يظنُّوا أنهم نائمون يا ديادا. وما نومهم الوحيد الا الموتَ وراحتُهم الواحدة. والموت نوم طويل يكاد يدوم أبداً. لا يستيقظون منه الا وقد ذهب الجسم ترابًا وبلى. فاذا استيقظوا كرهوا أطلال الجسم منزلا. فيغضبون، ويعملون مايعمل المُكترون يُخرجون من مساكنهم قهرا : يجوبون طرق الدنيا ويحنقون ويحقدون ويصرخون، فيمتنع لصراخهم عن الآلهة الكَرَى ؛ فأرواحهم نواميس السماء...

الحجرة الثانية

وهو مايسمُّونه الآخرة والحياة الاخرى : هو أن تلكع النواميسُ

ارواحُهم آلهةَ السماء، فتحيِّرَ نومَها وتُعديها بالحُمَّى...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

قولي لنا ياأُخيَّة : ما يريد هؤلاء الغرباء ؟

الحجرة الاولى

ياشوقاً الى العلم، يالين الروح ديادا، ما تريدين ان يكون ؟ انهم لا يريدون شيئاً. انهم يتوهّمون أنهم يريدون...

الحجرة الثانية

كذا البشر يا ديادا. لايهوَوْن الاّ الاوهام ولا يُغرَوْن بغيرها. وما من شيء، ولا من مخلوق، ولا من حيّ، الا ويتّخذ من حياته أهواءً وعادات شاغلة. فالآلهة من دأبها أن تخلق العوالم ثم تنزوي فتشتغل بلعب الشطرنج او النرد لتزجية الدهور. والشمس من دأبها أن تنير، والحمير من دأبها أن تنهق وتشهق، ونبيّنا من دأبه أن يجمع فيذّخر الاصوات. والبشر من عادتهم أن يجمعوا الاوهام والمعتقدات : يؤمنون باللّه وبالشيطان، وبالانس والجان، وبالقبح والجمال، وبالطبّ والموت، وبالدنيا والآخرة، وبالعدل وبنات السعالى، وبالقوّة والخمر، وبالعمل وتمائم السحر، وبقدرتهم والسدود في الصحاري. انهم لمّامون جمّاعون، باللّم والجمع مولَعون. كأنّهم رُواةٌ او محدِّثون...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

هؤلاء الغرباء يا أخيّة ماذا يريدون ؟ ماذا يَهِمون أنّهم يريدون ؟

الحجرة الاولى

هؤلاء الغرباء أنفسَهم يطلبون...

الحجرة الثانية

لأنهم لايعشقون غيرها يا ديادا، ولا بِهم علةٌ غيرها ولا باطنُ داء. وانه ليتخنَث الرجال فيقعون للرجال. تقرُّباً من انفسهم وتفانياً فيها. ولا تقرب الرجلَ البِكرُ العذراءُ الا وقد لمست نفسها ومرست جسمها وطعِمت بكارتَها والتذَّت الى البكاء...
لذا ابتدع البشر المِرآة ديادا.

الحجرة الثالثة

(ذاهبةً في الوان من المعاني)

انفسَهم يطلبون ؟ هم اذن أوساعٌ وأبْعاد لا تُحدّ...

الحجرة الاولى

نعم يا ديادا. نعم ولا. فأضيْق مكانٍ يكون سماء. وأقصرُ خطٍّ بعيدَ المدى...

الحجرة الثانية

نعم، اذا قصر عن غايته البصر، اذا عشي الرائي عن منتهاه...

الحجرة الاولى

انظريهم ياديادا.

(تنظر ديادا نحو السدّ)

انظريهم عند الهاوية بمُنْقَطَع الوادي. انظري كيف يسيلون عرقاً، ويَجْهدون أنفساً، وتترامى قواهم عن أجسادهم كشرَر النار



عن النـار. انظري آلاتهم تـدخّن وتسودّ، ودواليبهم تهزّ وترتجّ، انظري جباههم أنْتأها الجدّ والجهد، وأيديَهم أدْمَتْها الصخور الصمَّاء.

انظري العملَ يبتدىء وتوهُّمَ القوّة كيف يكون...

(تنظر الحجرات الثلاث معاً نحو السدّ)

كذاهم. لم يقصُرْ فكرهم عن شيء مثل قصوره عن ادراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاسلام. هم مُفعَمو النفوس إيمـانـاً وإقـداماً وحبًّا للجهـاد. وإنهم لسُكـارى : يريـدون أن يخلقوا. يريدون أن يشبعوا الارض ماءً، فيصيبوا منها اشجارًا ونباتا، وحدائق غنَّاء، ومروجاً سمينة، وعشباً ريّانا، وثمارًا لذّةً ذوْباً، وأزهارًا منفجرةً ماءً...

الحجرة الثانية

نفوسُهم أبعدُ ما يكون عن نفس الزيتون يعضُّ القحط ويسقي.

الحجرة الاولى

(تستتم كلامها)

... يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا العجْز. ولكنَّهم لن يجدوا الى خلق العاصفة وجهاً ولا الرعدِ والزلازلِ والبرق. لن يستطيعوا الى الخلق سبيلا.

الحجرة الثانية

(مرتِّلةً انجيل صاهبّاء)

اعوذ بصاهباء من الانسان الرجيم :

«وأهوينا على السحب بمعول من صخر وقلنا للارض كوني.
فوضع السحاب ارضاً من صخرٍ وشدةَ. إنّي أنا الخالقة الربّة.

ثم جاءتنا الملائكة فسجدتْ وقالت : الارض صخر ولا حياة فيها، صاهبّاء. فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدَّ فانفلقت جميعا ودوت دويًا وأرسلنا الصاعقة فشقَّت صدر الارض واودعته حياةً حيَّة.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربّة.

ثم جاءت الملائكة ساجدين فقالوا : شَعَر الارض الاشجارُ، ودماؤها الماء، ولا حياة فيها صاهبّاء.

فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانفلقت جميعاً ودوت دويًا. وأرسلنا الصاعقة فشقَّت صدر الاشجار وقلب الماء واودعتها حياة حيَّة.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربَّة.

ثم إنَّا أثرْنا في العالمين نقعاً، وصفعناها صفعاً، وهيَّجْنا الا كوان تهييجاً، وهززْناها هزًّا، ورججْناها رجًا. فوضع الانسانَ الرعدُ والصاعقة والبرق. وقلنا : يا آدم أخرجْ من ضلع العاصفة الريح والصاعقة الرعدِ ، وكن فيها النور والنار والبرق.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربَّة.

وقلنا : الانسان آخر الخلق. ثم قلنا : ياجبال انثَني وتعاليْ.
فقامت فأعلينا علاها، واستوينا على ذراها. وتصلَّبنا أبداً صخراً.
وأمسكنا الرعد والبرق والصواعق الصعقاء. وأقررنا الكون إقراراً.
وحبسنا في صخر الجبال الزوابع الصلبة. إنّي أنا الخالقة الربَّة.

وجاءت الملائكة فقالت : إنه قد نسي الانسانُ اسم صاهبّاء...»

الحجرات الثلاث

(معًا)

صَدقْت صاهبّاءْ.
هلهَبًا هلهبًّاءْ.
سُبِّحت صاهبّاءْ.

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

ألا نذهب أُخيَّة، ياحلِم ويا رحمة، فنهمس إليهم بحكمة الحجارة الصلبة ؟ هيًا نُعلِّمْهم حكمتنا الحقَّة، لا يُحوِّلها شيء ولا تصفقها صفقة ، لا تتحرَّك ولا تسكن ولا تفنى ولا تبقى : دوامٌ في الروح وسرمدٌ باطن.

هلمي نعلِّمهم، ونمنَحْهُم السكون واليبس والراحة، ونهدِهم الى الدَّعَةِ الجُبْنِ والحكمةِ الصلبة، وتركَ الجدِّ والجهد ومعاندة الربَّة.

صوت هاتف

اهلَ الوادي قَومَ صاهبّاء. اسمعوا النبيّ.

(تسكت الحجرات الثلاث ويصغين ويخشعن)

أمرُ النبيّ.
حُرِّم عليكم أن تقربوا الغرباء.
أو تكلّموهم.

أو تعينوهم.

الحجرة الثانية

(همساً لاختها)

ترى أقرَّر امرَه باغلبية اصواته أم بالاجماع ؟

الحجرة الاولى

(همساً)

اسكتي، لا تبوحي بسرِّ الألهة والانبياء، سرِّ حكمتهم وسياسة السماء.

البغل

(يحدِّث نفسه)

أما انا فقد سمعته وسابيعه لغيلان ربّي.

صوت هاتف ثانٍ

أيها الناس اسمعوا وعوا. واذا سمعتم فاكتموا.

الحجرة الثانية

(همساً لاختها)

امّا هذه فسرقةٌ غير خافية. سرقها النبيّ لقس بن ساعدة.

الحجرة الاولى

(همساً)

اسكتي، فقد يسمعك الهاتف ويغتاظ النبي. اسكتي وتصلّبي.

تسكت الحجرات الثلاث ويهمس أهلهـا

هلهبّاء، سبحت صاهبّاء. ثم يسكنَّ ويرقدن وقد تصلبّن وعدن حجرات...

ويسمَع زلـزالُ عمـل البنـائين ورجـال غيلان بمنقطع الوادي، يحرّكون ويرفعون ويصرخون ويجهدون. ولا تعود ميمونة منذ يومها. ولا يُري كاملَ النهار أمامَ الكهف والخيمة، الاّ الحجرات تتململ ساعة بعد ساعة فيسقط عنها بعض الغبـار، كـأنّمـا ينغّص نومهـا دَويُّ الصخور والمعاويل والآلات والدواليب...

ويقول البغل :

البغل

(كالرّاجع من تفكير بعيد)

اذا أصاب الحجارةَ جنونٌ انقلبت جواري. إنّ جنونَ الجماد الحياة.

المنظر الخامس

في صباح يوم من الايام... وقد مضى على أول القصة ستة اشهر وكاد يتكامل السّد.

يُرى غيلان واقفاً أمام الخيمة ينظر نحو السّد. ثم يلتفت نحو الخيمة ويدعو ميمونة.

غَيْلان

لو أسرعتِ يا ميمونة. إني أرى أصحابنا مقبلين الى السّد، وأحبُّ أن تنظريه في سكونه وعظمته قبل ان يشرعوا في عملهم، ويقوم الغبار، وتعلو جلبة الرجال، وتدوي زلزلة الصخور، ويتنفَّس السّد أنفاسه الشديدة.

ميمونة

(من داخل الخيمة)

أوَ تَخاف أن لا أقدر عليه في زلزلته وأنفاسه ؟

غيلان

نعم ياميمونة. لأنّك لم تتعوَّديه.

ميمونة

(وهي بارزة من الخيمة)

مَنْ لم تُخِفْهُ الجبال لا يخافُ السدود. أنا اليك. هذه العقبة.

تأخذه من يده وتسلك به العقبة. فيذهبان كالمنحدرين الى السّد.

غيلان

مارأيتك من يوم نزلنا هنا أنشَط من هذا الصباح...



ميمونة

(متضاحكة)

لأمرٍ ما في النفس يا غيلان كان النشاط.

غيلان

وقد أبيتِ إلاّ اليوم أن تنزلي إلى السدّ.

ميمونة

لأمرٍ في النفس يا غيلان كان الاباء.

غيلان

لكنّه لا ينشط ياميمونة الا المؤمنون. اني أراكِ آمنت

ميمونة

لا أدري أآمنت أم لا. لعلّني آمنت أو سكنت.

غيلان

مستحيلٌ أن أسكن او تسكني. لان حياتنا مُفَعمة عقباتٍ وثنايا وارتحالاتٍ واسفاراً، خلوٌ من كلّ وصولٍ ونزول، وكلّ قرارٍ وسكون...

ميمونة

هذا أنت تقوله.

غيلان

وانت ما تقولين ؟

ميمونة

لا اقول شيئاً. وإنّما اريد أن أرى السّد.

يصلان الى منعطف من منعطفات العقبة يشرفان
منه على السدّ بمنقطع الوادي فيقف غيلان
وتقف ميمونة.

غيلان

انظري...

ميمونة

(تلتفت الى صفاة عظيمة على يمين العقبة)
(معلّقة في الهواء فتقصد اليها وتقول)

هذه الصفاة كالسّد معلَّقةً في الهواء تدعو الى الجلوس. وأحب أن أعرف هل يجد القائم علي المعلَّقات في الهواء دُوارًا، وهل تجد ياغيلان دُوارًا إذا قمتَ على سدّك المعلّق في الهواء.

تذهب فتجلس على الصفاة، وتصرف وجهها الى
الابعاد والسّد تحتها واعماقِ الوادي.

غيلان

(منكراً لقول ميمونة)

السُّد راسخ الأصل في الارض.

ميمونة

السد معلَّقٌ في الهواء.

غيلان

أنت مجنونة.

ميمونة

كذلك تقول الجنَّةُ للجنّية منهم ترى ما لا يرون : أنتِ مأنوسة.

غيلان

ألا تجدّين ؟ بل انظري السّد وعظمته القائمة. انظري الصخور قامت فغلبت صاهباء والقحط والجبل، انظري المياه مُتّكِئةً إلى السّد، تترقّب ان تُروي وتُحيي

ميمونة

ما كانت المياه يوماً في حاجة الى الاتّكاء. المياهُ من شأنها أن تجري وتجرف، وما عرفتُ مياهاً كسْلَى. الماء من أنشط المخلوقات. فلا تَتَّهم الماء بحبّ الاتكاء والراحة.

غيلان

لقد طلبت مرارًا فلم أعرف ما سبب تحاملك على السّد. فما تريدين ؟ما تعنين ؟ مالك والسّد والفعل والخلق ؟

(لا تقول ميمونة شيئاً وتبقى مطرقة)

ومع ذلك ها إنك تنظرين السّد...

ميمونة

أيّ سّد يا غيلان. إني أفكر...

غيلان

وفيم هذا الفكر الصارف عن السّد. القاطعُ للكلام.

ميمونة

في الصدق. في التجرُّد. في العَرَاء...

(يخفق غيلان براسه كالمتضجّر)

... لو سألتك ياغيلان ان نظلّ يوماً بالكهف، وأن تنزع الثياب

وأدع الثياب، وان نقضي معاً يوما عارياً خالصا طاهرا، لا يفصل بيننا كلام ولا حركة ولا ثوب، وأن تحبَّني ولا تكلّمني وأحبَّك ولا أقبّلك، وتمسَّني ولا تختَّص بلَذّة، وألبسك فلا امتاز عنك باحساس... لو سالتُك لقلت : أنت مجنونة. ويكون حياؤك أقبح من كلّ فُحش. وتكون كجميع الناس يستحيُون أن يتعرّوْا ويشتملون باكثف الثياب. وما رأيت الاّ طهارةَ الحيوان والوحوش والارض والنور والقطّة تقع للقطّ والناقة للفحل والارض للنار،ولا تستحي ولا تختفي ولا تتنكر...

(تمسك لحظة)

وإني بينما كنت أنت منذ ستة أشهر الى سدّك وفعلك وجهدك خلقك، خرجتُ عارية الى الحيوان والوحوش والارض والنار والنور. طهارةِ الكون. طهارةِ الحياة. عراءَ الكون. عراءَ الحياة. طهارةُ الورح. عراءُ الروح. الصدق...

وما احتاج الى سدٍّ إلاّ من خشي التجرّد، وجبن عن الصدق والعراء. وما استحيى مِن كشف النفس الا من كانت نفسه في قبح العورة. بلَ انظُر الصفاة تلقاك بكامل جسدها ورأسها وأنفها وثدييها وبكارتها ولاّ تستحي. وانظر سدّك كالغطاء يستر عورة نفسك ويخفي علّتها وقبح منظرها ويوهمك القدرة ويستر العجزْ...

غيلان

لا صدق يا ميمونة ولا عراء. ولا غطاء. السدّ سدّ.

ميمونة

وغيلان غيلان !...

(في عزم)

... إجلس وهات الحساب.
ألم تُسرَق جميع آلاتك في الشهر الاول ؟

غيلان

بلى. ولكنّي جعلت من الايدي والعزائم والسواعد والقلوب صواقِرَ وفؤوساً ومعاويل. وغلبت الصخر بالصخر، واستغنيت عن الحديد والصواقر والفؤوس والمعاويل.

ميمونة

ثم ألم تذهب الحُمّيات بنصف رجالك في الشهر الثاني ؟

غيلان

بلى. ولكنّي قلت للنصف الباقين : خذوا بثأر أصحابكم فاغلبوا ماغلبهم، وأقيموا سدًّا أرادوه فماتوا فيه. فعمل الرجل منهم عمل ثلاثة. فكأنما ورثوا عزم أصحابهم وسرتْ اليهم قواهم.

ميمونة

ثم ألم ينفجر عليك ماءٌ دفَقٌ في الشهر الثالث جرف أعلى سدّك وحطّم شهرين كاملين من عملك وجهدك ؟

غيلان

بلى. ولكنّا تألّبنا على المياه. فرفعنا ما حطّتْ وعمّرنا ماأخلت، ورددنا السيل ونفيْنا الجرف.

ميمونة

ثم الم تَهلك في الشهر الرابع قافلة الحديد أثناء طريقها اليكم حِمْلاً وحاملاً ؟

غيلان

بلى. ولكنّا قطعنا جِذالاً عظاماً صلبة من الغاب، فأقمناها مقام الحديد.

ميمونة

ثم ألم تُصبك منذ شهر حمّى هدّتك وأقْصتك عن سدّك، وتركت رجالك كالعُمْي أو كالأيتام ؟

غيلان

بلى. ولكنّي أقمت كبير البنّائين مقامي، فقام بالأمر أحسن قيام.

ميمونة

وكل هذا، كلّ هذه القوَمات بعد النكبات، لانّك كنت تخشى ان تخسر السدّ وتيأس منه، فتنكشف العورة ويتبيّن العجز...

غيلان

لا يا ميمونة. لا. إنما كان كل ذلك بضرورة الفعل وقوّة الخلق.

ميمونة

ولكنّا دخلنا منذ منذ أيام في الشهر السادس يا غيلان. واني لأجد في النفس توقّعا وخوفاً...

غيلان

(متضاحكا)

ومِمَّ ؟

ميمونة

لا أدري... لاتعُدْ الى السدّ يا غيلان. إني اخشى عليك منه. لا تَدعني إليه.

غيلان

مِمَّ الخوف ؟

ميمونة

لو مُتَّ يا غيلان.

غيلان

انا لا أخون ما أعِدهُ بنفسي من الاعمال. والموت خيانة.

ميمونة

ولو مُتَّ مع ذلك. الموت لا يبالي بالايفاء بالوعد.

غيلان

سؤال ولا وجه للسؤال. نحن لا نموت الاَّ في آخر القصة...

ميمونة

والسدّ عندك قصة ؟

غيلان

وما تَرينه يكون ؟ كل شيء قصة. بل انظري يا ميمونة. لو مُتنا الآن لقطعنا حبل القصة وأغضبنا الاقدار فهي تمدّ في الحياة لاجل القصة وتميت لاجل القصة : كمجنون ليلى واهله وليلى واهل ليلى، عاشوا وارتحلوا ونزلوا وأحبّوا وكرهوا وقطعوا بين

المجنون وليلى وفعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا، ليكونوا قصة من قصص الادب. او كالانبياء يوحى اليهم في الاربعين لا قبل، ويموتون في الستين لا قبل، ويولـدون في مراح غنم لا غيره، ويصلبون او يشبّهون الى النـاس ولا يحرقون، لتُصنَع فيهم قصص الانبياء... والآلهة والاقدار كالعجائز والشيوخ مُولَعون بالقصص. فنحن لابُد ان نبقى أحياء الى آخر القصة. الحياة والموت لا قدر فيهما يا ميمونة ولا قضاء. انما هما من أمر القصة...

ميمونة

(هازئة)

اذا مات الرضيع وإن كان من أخصب الاطفال صحّةً، فاعلم أنه لا فائدة فيه للقصة. واذا عاش الوليد حتى شاخ وعُمِّر وان وُلدت معه مائة آفة، فهو لابدّ منه للقصة !

غيلان

وما يُدريك ؟ فقد يُراد من الرضيع الفاني بأبويه قصة. قصة الحرمان، من الزمان، من المدى...

واهزلي أو جِدِّي فهو ماقلتُ : الحياة وظيفة الانسان في القصّة، والعمر مداها.

ولو شئنا ان نموت الآن ولو قتلنا أنفسنا لما مُتنا.

ميمونة

اتعلم يا غيلان ان سدّك لا يستقيم لك إلاَّ...

يقف غيلان فجأة ويصرف بصره إلى جهة السدّ بآخر الوادي.

غيلان

(وهو يمعن النظر الى جهة السدّ)

إلأ... ؟

ميمونة

هل جعلت فيه حجرًا أسود ؟

غيلان

(كالناشئ فيه اضطراب أوكالذي بدأ يضيق بالكلام)

ولِمَ أجعل فيه حجرًا أسود ؟

ميمونة

إذن لايستقيم. ألم تر إلى الكعبة ؟

غيلان

(كمن حل به اليقين بمصيبة)

ما هذا ياميمونة !... مأرى ؟

ويندفع، فتقوم ميمونة فتنظر فترى دخانا متصاعدا من جهة الجذال المسند اليها بناء السدّ، ويلوح لها الرجال على السدّ يهدمونه او يرمون من اعلاه حجارة على النار.

ميمونة

هذا ما كنت أخشى.

وتندفع إثر غيلان، فينحدران في العقبة سريعا ويغيبان عن البصر نحو الوادي.

المنظر السادس

في مساء عين ذلك اليوم... ليلةٌ مقمرة وجوٌ كمشاع اللبن كأن ميمونة وغيلان والخيمة والجبل فيه في غمامة بيضاء.

ميمونة مستلقية على سرير أمام الخيمة ووجهها الى السماء تتفالق فيها النجوم. وغيلان واقف كالصنم الابي... والبغل رابض.

يعوي الذئب ثلاثاً ويقفز البغل.

ميمونة

وعُواء الذئب أيضا يا غيلان.

غيلان

وأيّ شأنٍ لنا فيه ؟

ميمونة

الذئب صوتك يا غيلان.

غيلان

(يتحرك فيذرع الفناء جيئة وذهوباً)
(كمن قامت فيه حيرة)

الذئب صوت هذه الارض. فهي عليلة، تشكو الوجع على ألسنة حيواناتها وانبيائها، وفرقعة صخورها في الليل، وحفيف طيرها في الظلام.

ميمونة

الحيوانات والانبياء والصخور كلها تنذر يا غيلان. والذئب يألم.

غيلان

(في شيء من الغيظ)

الا يخرس هذا الذئب ؟ الا يخرس كل شيء ؟أليس يستطيع الكون ان يصمت ويسكن ساعة واحدة من الابد ؟

ميمونة

هذا غضب المغلوب يا غيلان. اجلس او استلق مثلي.

لايقول غيلان شيئاً ويذهب فيستلقي على سريره بقرب ميمونة ويمسكان ساعة، فلا يُسمَع الا انفاس الليل. ثم تتكلم ميمونة.

ميمونة

(بهدوء أوّلاً)

ها قد طُردت من الخيال والأُمنية، وزُحزحتَ وزال القرار. فانت في نفسكَ مقصور عليها وقد اشتملت بالعجز والغيظ... خرج عنك رجالك وخذلوك، وسدّك لايزال يجهد أن يتم وأنت لا تزال تجهد أن تقدر. فاذا أنت تهوي وتَتَّقِد وتصطلي نارَك. وتريد ان تطفىء غيظك بالكفر والطغيان واللعنة. غالبت صاهبّاء تظنّ انك الغالب. فجمعت عليك كلمة رجالك وأوحت اليهم الشقاق والنفاق، وتركتك وحيدًا مُولِما حقيرًا، وتركت لك هذا السدّ منتصفاً صورة منك اليك...

لقد همُّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك، وأن لا ينصرفوا الا أن يهدموا سدك تهديماً. ولكنّ صاهبّاء شاءت بك لطفاً او غاية قسوة، فصدَّتهم وأبطلت أيديهم عنك. حتى لقد رأيت أيديهم

يرفعونها بالضرب او الهدم ولا تضرب ولا تهدم. حركاتٍ سكونا كصوتك ينقلب سكوتاً. فكأن قوة السواعد والايدي تختنق في العضلات اختناق صوتك ينشأ في صدرك ويموت في حلقك. ولم يصبك الا نارٌ في اليد أحرقتْها. وسَلمتَ وسَلمَ سُدُّك. ثم جاءتك الهواتف فقالت : «كفى عناداً واستسلم. فما قُدِّر لك غير الشروع. كبعض الافعال من أخوات كاد. فلا تطلب بلوغا الى غاية، ولا تطمح الى قِمّة...»

فلنزهدْ ولنستسلم يا غيلان. دع عنا السماوات والاعالي ولنكتف بالارض. وانّك ان أتممت الفعل وأنهيته فقد قتلته فليبق هذا السّد غير تام. ليبق له خلوده يا غيلان. دعه بلا نهاية... ولنكن لانفسنا يا غيلان لا عليها لغيرها. لنكن انتظاراً للحاضر لذيذا، ولنكن القريب البعيد، اللذّة الحاضرة والسعادة الحاصلة نستبعدها كالتمنّي وهي واقعة. لنكن مقدمة لنفسينا وتمهيداً. ننتظر النعمة وهي حاضرة. ونتوقع المتعة وهي شاهدة. وتنتظرني وأنا بين يديك، وانتظرك وأنت فِيَّ. لنجعل الطلب في قلبينا : أطلبك وأنا حاملتك وتطلبني وانت حاملي. لننس الممكن ياغيلان. لنكن الفجر...

غيلان

نعم... ذاك عذر جميع من يجبنون فيضعفون عن الجهاد. يقولون : لا حول ولا قوة الا بالحقيقة الواقعة، والحقُّ الواقع لايقاوَم، والممكن لايستقيم. وما يقولون الا باطلا وهماً. لان الحقيقة الواقعة وجميع العقبات لا تحول دون الممكن يا ميمونة.

لأتمَمَنَّ السدّ.

ميمونة

إمكاناتك يا غيلان، أعلمُ أنها بديعات نفسك وأنها العدم يتصوّر لك وهو يريد أن يكون ... وإنها لمن باطن آلامي. وانها للعظمة والرزانة. وحقيقة الحمل. ولا نكون بدونها الاخلاءً. لكنّ وضع الامكانات وضع الحمل، وليس أحقر من حامل بعد وضع. فلنبق على غنانا وعظمتنا ورزانتنا، وليبق معنا ما يملأ النفوس. ليبق السدّ في نفسك امكاناً حملا.

غيلان

إن من بين الساعات لساعةً يا ميمونة لا ينقص فيها الخلقُ والوضع منك شيئا، ولا يذهب بشيء من حملك. ساعة يتصور فيها الممكن بصورة الكائن الواقع دون ان يتقيّد بقيد ولا يُحدّ بحدّ. وينقلب فيها الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد أشدّ من كل حديد وقوة. هي ساعة أقصى الصعوبة. وإني أراني فعلت ما فعلت، ولقيت ما لقيت من المصاعب في فعلي، ولَمَّا أصِل الى هذه الساعة.

وانها لساعة أعظم من صهباء وأعلى. أعظم من السماء وأعلى. وأعظم من جميع الآلهة واعلى. هي ساعة كمال الخلق.

طريقنا لا تزال يا ميمونة طويلة...

ميمونة

ألا تخشى علينا الغِشية والاعياء والضعف ؟

غيلان

هل تذكرين أسطورة أسال ونائلة ؟

ميمونة

نعم... أسطورة الرحيل. سمعتها منك في ليلةٍ كنّا فيها الى الرحيل.

غيلان

... جاءها يوما – وكانا قد بلغا أقصى جمالهما وأبعد حسنهما – جاءها فقال : إني راحلٌ عنك. فقالت : وما طريقي بعدك ؟ فقال : العقبة الوعرة. قالت : وما الراحل بك عني ؟ قال : كره البيوت الثابتة، لا تنتقل ولا تتحرّك. وكانت عيناه وهو يقول الى أبعدَ من الافق. ثم قال : ولئن اكتفيت بك فاكتنفتِني إنني إذن لجبان. وقد حذَّرتُك ان تكوني ظِلِّي وبرودتي ونهاية طريقي. فان شئت أن أبقى فلتفنَي.

وادركت نائلة أنه عاوده الرحيل وكرهُ الشجرة على الطريق باردةَ الظل تدعوه أن يقف ويستريح. وكان يقول : لا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا نهاية. وكان يخشى ان تنقلب الحركة والرحيل والشوق الى صخرةٍ وقوف. فلما ادركت أنه عاوده الشوق قالت : افعلْ ماترى.

فأخذ عصاه وذهبت به الطريق ... فهو عليها الى الممات.

ميمونة

أو لعل نائلة ماخسرت أسالا الا لا نها تبرَّجت له وتصدّت.

وليس من فحلٍ الأ وهو شديد الزهد في الضابعة الملقية نفسها. ولا من إله الا وهو شديد الزهد في القُربان الذلول الخاضع للذبح. إن كان ذلك منها فقد أخطأت نائلة.

غيلان

إنما خطأ نائلة وخطأ صاهبَاء أنَّهما ثابتتان لا تنتقلان ولا ترتحلان.

ميمونة

«لعنةُ الكون على مَن   لايَني عنه الرحيلُ»

غيلان

أهو من كلام الهواتف أيضا ؟

ميمونة

نعم يا غيلان. ولكنك متصامٌ أصمّ. لا تسمع الا الابعاد لا تتناهى وخلاء عوالم الغيب، ويُفزعك الملأ.

ليمسنَّك يا غيلان الجنون. أتذكر هامانَ تركناه في أول طريقنا إلى السدّ ؟

لقد كنت تدعوه ان يتردّد علينا. فاذا جاء سألتَه أن ينشدك شعره، وقلت أنه من ابدع ما يُسمع. وما كان الا هذيان مجنون. وما كان هامان الا ظلاما وروعاً. وكان على بعض الوجوه نقيضك، ولم تتعرَّف من أمره غير ذلك. اما أنا فقد حاولت أن اتعرَّف...

فهل تعلم يا غيلان ما كان سبب جنونه ؟
وُلد هامان...

(يتضجَّر غيلان)

لا تتضجَّرْ، فلست قاصّة عليك كامل حياته – وُلد احمرَ ريَّان شهيّ الوجه والفم والعين. ثم نشأ فكان فيه صمت وفيه الى فساد الاخلاق ميل. وترعرع منغلقاً لا يبوح فمه بشيء. مُخَنَّثاً لا يردّه عن لذّته شيء.
وكان مفعم النفس ظلاما كالضالين في طغيانهم يعمهون. سنين طويلة. فريدًا وحيدًا لا أب ولا أخت. ترمقه عين أمٍّ عجوز وحيدة لم يعرف غيرها امرأة قط.

ثم شبَّ فانكشفتْ نفسه لعينه فاذا هو الثمرة الدائدة الفاسدة، واذا شيطانه الباطن ودودته المرأة والشهوة. ولم يكن لبلاده غير السماء والزرقة. فقال : أريد أن أُقبِّل السماء والزرقة. فقالوا : إنه مجنون او شاعر. ثم نشأ العقل ففقَّح وتشقّق عنه الجسم والشهوة كتقريح الارض عن البقل. ومزّق هامان جلده بظفره، وابتدع النسيان ليصرف عنه الشهوة والحلمِ والجسم. وكانت تأتي عليه ليالي الصيف كدَعوات شدادٍ لاتُرَدّ، وتتواتر عليه الاطياف والمحسوسات، وتتَّقد شفتاه، فيقوم فيعدو فيقع في ماء البحر كالفزع الملدوغ. وكان يجلس الى البحر عند الآصال، والشمس الى الفتور، فتبرز له الفتياتُ رياحين ونورًا تماثيل يسبَحْن في الشمس. فيلتهب ولا يجد الى صرف الكلاب المحيطة بهنّ سبيلا، ويرسل زفرات العفيف يرغم على العفّة. وكان له في

النسـاء، وخلاء الجزيرة منهنّ وصبره عنهّن، جهادٌ حديد. وسكنته الحيرة واعتّل الجسم، وجحد هامان ربَّه. وأوهمه العقل أنه يخلّصه من شهوته وجسمه الصائم، فهمس فيه : لأُقيمنَّك صَرحـاً عظيمـا. وسعى هـامـان ان يعلو ويمتن عقلاً، ويعظم ويشتدَ روحاً. وتوتّر عقله حتى كاد ينقطع الوتر وتطير السية. ووجد هامان اتساع الابعاد لا تُحدّ. وكان التدميرُ والهدم. فهدم شديداً. وهدم مغتاظًا. وهدم العقل والحس. وخلق نفسه خلقا جديداً. أو ظن أنه...

ولكنه لم يلبث ان علم ان الحس بقي تحت العقل كخامد النار، وأنه كان للعقل حداً وقيداً، وأن العقل كان للحس كالكير للنار...

ثم تهيأ له الامر فارتحل عن الجزيرة وعبر البحار ودخل مدينة سيرام. وولج نهرَ اهلها من رجال ونساء. وتهيأ له منهنّ حسان لا تُحصى. ونسي العقل. وبلغ أقصى الشهوة وما تورث من دُوار وغشية؛ وظنّه الارتواء والشبْعَ. وما كان ارتواءً ولا شبعا. فقد كانت كل ذروة تهوي به الى أسفل الجوع. وكل متعة الى أبعد الشهوة. وكان يسكن بعد كل شبعة ساعة. ثم اذا شوْكة او إبرة تَخزِ سكونَه. فيعود الى الحس والنساء واللذة...

ثم احتاج أن يعود الى الجزيرة، فعاد، وامتلكته كذي قبل. ونظر فاذا الجسم قد غلب العقل، وتثاقل عليه كالوطب وأماته. واذا الصوم بالجزيرة يعود الى الجسم والشهوة. وعلم أنه قصر عن نفسه وقصرت عنه نفسه. فدخله من ذلك اليوم الجنون...

وهذا الذي كنت يا غيلان تسمّيه الشاعر الاشعر، وتدّعي له مدًى وتعيره فضلا. وانما كنت تحبّه لانه كان نقيضك. لانه كان نفيَ ما كنت تريد إثباته في نفسك : الروح والعقل والايمان بالانسان والقوة. لانه كان غليب الجسم والوهم والشهوة، فانت تريد الاخذ بثأره. لانك تظن انك سلمت ممّا أماته من المقتضيات الجبّارة الشديدة.

لانك تحسَب أنك بالغُ الفعلِ والتكوين والخلق، وهو لم يبلغ منه شيئا. لانه أماته الحقيقة الواقعة وخنق الطين امكاناته، فسقط وتساقط في باطن نفسه أنقاضا. كانقاض بيت متهدّم وقعت في جوفه. لانك تظن انك فاكٌ للعقال، قاتلٌ للحقيقة الواقعة، قادرٌ على الممكن...

(تسكت ميمونة لحظة . ثم ....)

انك يا غيلان للعتيّ والكبرُ. وانك للخلاء والضعف والجبنُ. انـك الثور يصعَق خُوارًا الى يوم يُخصى. فـاذا خُصي ذلّ وأمسك. ولا بدّ يا غيلان ان تخصى...

غيلان

فيم كل هذا الغيظ وحرارة اللهجة ؟ فما استحق الثور هذا الشتم ولا هذا الغضب. الثور من خيرة الانعام.

ميمونة

لا تتصنّع يا غيلان الطمأنينة. ولا تتصنّع رضى النفس. لاتُمارِ. انك الضعف والخلاء والجبن.

يبرز من ظلمة الليل الناشىء خيال لطيف كاختلاج جناح الحمامة ويقوم على رأس غيلان. فتتبيّن منه العين قامة كالصَّعدة، وشعرا كرغوة القمر، وجمالا ونعومة ورواء ... تلك مَيارِي.

غيلان

وانتِ يا ميمونة ؟ ألستِ الشك والحيرة ؟ والصيحةَ في الصيحة ؟

ميمونة

او عينَك التي لا تُمارى. عينك التي ترى. لا تَعشى ولا تعمى.

غيلان

ان أنت عيني فعيني من أغرب العيون. عيني لها أذنان ورأس ورجلان وصدر وثديان. وعيني تأكل وتشرب، وتغضب وتفرح...

ميمونة

تأكل وتشرب وتغضب وتفرح. وترى أيضا يا غيلان. وقد رأت صباح اليوم...

(يسكت غيلان ويسكن)

نعم لقد رأيتُ صباح اليوم العمَّال والبنَّائين وقد جُنُّوا في هذا الوادي وادي الجنون. وسمعتهم يقولون : لن نرفع بعد الساعة صخراً. ولن نبني ولن نقيم سداً. ولانحتمل اللعنة والنقمة... فلما قالوا وصاحوا صياح السباع تضري، وهزَّتهم ريحٌ هوجاء تدوي، وصاحبتهم ضوضاءُ هولٌ الى الافق، وتصاعد الغُبار فوق الطريق فقصَّ فرارهم، وخلونا أنا وانت وخلا الوادي، - نظرتُ

فرأيتُ كل شيء حولك يسلم ويُذعن : رأيت الصخور طريحةً تقول : لا جهاد. أسْلِمْ. والسدّ أبتَرَ يقول : لا جهد ولا جهاد. أذعنْ. والدنيا كلها بسكوتِها وانغلاقِها على صياح العُمَّال والبنَّائين وهدّوها بعد هزَّة الثورة تقول : لا جهد ولا جهاد... لا جهد ولا جهاد... ورأيتك قائما وحدك ممسكاً يَدك الحريقة، وقد عاندت واستكبرت وأبيت. وانكرت الهزيمة. ونفيت الانكسار. وصَرفت خفقة القلب. وامسكت دمعة العين. ولم يُسْمَعْ لك توجُّع، ولا شكوى تبوح بحياة ورقة او باقي حياة ورقة. ومكثت شاحب اللون، متقلِّب الصورة، صلب الجسم. كالتمثال يقع فينكسر فلا يألم ولا يفرح...

ورأيتك على ذلك يا غيلان، فرأيتُ غولاً كما عرفتُ في صباي من الاغوال تُصنَع من مِلحفة ووسادة : وجهٌ من أشوه ما يُرى وهيأة من أهول ما يُفزع... وما تحت الوجه والهيأة الا أخي الصغير يلاعبني ويريد تخويفي.

كذا الزائفات كلّها يا غيلان. ولقد رأيتُك زائفا كغول الصبيان، او كالطفل الخَفِر الباهت يسلك طريق الذنب، ثم يقف في بعض طريقه مبهوتا، ينظر ما وراءه من براءة فاتتْ، وما أمامه من شجرةٍ حرام تُغويه وعقاب أليم يخافه. فينهدّ عزمه ويجمد، فيقف دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلّ الطريق وشُلَّتْ يداه وضاع رشده...

تتقدَم مياري ولا يراها غيلان ولا ميمونة، خيالاً كالحلم اللذيذ وغُربة تقع للنفس، كرفيف الريح،

ورديّةً حمراء، شذاها من زرقة السماء. وتُقبل على
غيلان بجناحيها فكأنها تهمّ ان تذوب عليه او
تتلاشى فيه. كالغمامة تشمله. ثم تنحني فتنفض
عليه مثل لقاح الازهار كرحمة السماء. ترشّ
رذاذاً...

وغيلان على ألمه لا يبوح ويسمع. وميمونة تؤنّب
وتقرع...

ميمونة

(بعد سكتة)

ولقد قلت لك مرارا : احذر يا غيلان وانتصح بانذار الهواتف. وقصصت عليك ما رأيت من رؤيا. فلم تسمع ولم تفهم. وذهبت الى سدّك. وتركتني وحدي..

وانفردت فترددتُ على القوم. ولم يكن عندي من امتع المتعة. بل كان ماينشأ في نفوس القوم من التجنّب والاعراض عند مروري، وصمتُهم حولي، وامساكهم عنّي، من أمرٍ ما تحتمل امرأة مثلي. ولكنّي مع ذلك غشيتهم وغشيت بيوتهم . وتأمّلت في الناس والحيوان والاحوال. وأمعنت الى الألوان والظلمات والانوار. وتعرّفْت العطور، وحضرت الصلوات، وسمعت الادعية. وتنشقت أرواحهم وعشت عيشتَهم أياما. ثم جئتك فقلت : يا غيلان. ها أنا ذي بعد الاصوات الهواتف وبعد الذي رأيت من رؤيا. ها صوتي، وهاحرُّ روحي في روحك، وكلّ روحك مفعمةٌ روحي. اليك نفسي ونصحي : ماقدِّر لهؤلاء الناس وهذه الارض غير الظمأ والمحال واليبس والقحط. وإنهم

أدركوا من أرضهم روحها ومصيرها فقالوا : إنها اقتضاءٌ محضٌ. تقتضي الانسانَ أن يفنى، كالصخرة تتميّز وتنشقّ لتنبجس العينُ وتُخرج الحياة والماء. وانه يا غيلان لمن أوهام الصبيان أن تحسَب أن الظمأ يقتضي السقي. والصبيّ الغرّ لا يخطر له ان الظمأ قد لايقتضي غير الظمأ ولا يدعو سوى القحط. فاحذر يا غيلان أن ينتقم الضمأ وأن ينتقم القحط... ثم قلت لك أيضا : هل تفكّرت في غريب شأن هؤلاء القوم يعيشون في هذا الجبل وهذا الوادي منذ آلاف السنين ؟ وهل طلبت سرَّ أمرهم فيها ؟ إنهم لم يطعَموا غير الظمأ المطلق، ولا وقع لافواههم فاكهةٌ او ثمرة او لحم او خبز لم يذهب الحرّ والشمس بلينه ورطوبته ومائه، ولا أكلوا غير عصارة الرمال قط، ولا شربوا ماءً الا مايمتصّون على الحصى النديّ في الفجر. وليس الذي تقتضيه هذه الارض وتدعو به غير عظام الجثث اليابسة البيضاء وغير الرخام والمرْو والصفا. منه مالها من بأسٍ وشدّة، وعنه مالها من عظمة وقوّة...

قلتُ ذلك وكرّرتُه حتى مللته. فلما مللت قلتَ : ان كانت هذه الارض تقتضي الصُّلب فسنعطيها سُدًّا صُلُداً...

(تسكت ميمونة كالمثقل. ساعة ثم تقول)

وليس في شأن الزائفين العاجزين المُتقادِرين أمرٌ من العِناد وأدهي.

وانك يا غيلان تُعانِد. حتى بعد الذي جرى اليوم تُعاند.

والعتيُّ هو القاتل.



غيلان

(بصوت خافت وأناة)

لو اجتمعت الأكوان لترحي وتقتُل لما اصابتْ غيرَ أسراب الطيور وجماعات الناس وقُطعان الغنم...

وأما منْ كان واحداً أوحد فاذا صعقتْه الصاعقة فهو الذي أهلك الصاعقة.

يسكتـان. ويبقى غيـلان في تلاطم من نفسه كاضطراب العواصف. ساعة ثم تستأنف ميمونة وكأنها تحدِّث نفسها، لاغيلان ولا غيره. فتقول :

ميمونة

وليست الشجاعةُ ولا الجرأة ولا القدرةُ ولا البأس ان تهدِّم نفسَك لتبني السدود وتفعل وتخلق. وما أحقرَ الفعل والخلق عذرًا عن تهديم نفسك !

الشجاعة أن تصبر على الشك ويقوى له قلبك. أن يسَع صدرُك التناقض الملآن الخصب. كالنور يهدم الاشكال بما يقتضي الجمالُ ويبني، بلا كيان ولا جوهر، معنى محضاً وروحاً. الشجاعة أن ترضى بنفسك وقصورك ونقصانك وعجزك. أن ترى شأنك ذالك ولا تندكَّ ولاتحزن. أن تجاهد دعوة الامكانات وتشويشها لوجدان الوجود وإغراءها بالفعل والخلق. أن لا تطمح الى الجبال وترضى بالاغوار والوهاد، وتأكل من الارض الغبراء فتكون لك لذة ولا تكون لك سواها متعة...

إني يا غيلان بلغت جهدي. وسئمت هذه الاعالي والسماوات،

والقِممَ والذروات لاتُدرك. سئمتُ الجهود والمساعي تخفق... وقد أخفقتَ يا غيلان حتى في حبّي وحبّك...

يا غيلان بلغت جهدي. ومللتُ الاعالي والسماوات لا تُبلَغ والجهود لاتُفلح...

كفاني التصاعد والتعالي كفاني ! فليهبَّ نَفَسٌ من ريح الوهاد الوضيع الثقيل ! ولينفجر الدم من عيني او وجهي وليملأ فمي من جراحي ! ليُعد لي الشعور بنفسي وحياتي وجسمي ! لأنزِل... ليجتذِبِ الأساسُ إليه القمّة ! لتسقطِ الأعالي على الاسافل ! تعجيلاً بالدّمار. تعجيلاً بالقضاء !

تمسك ميمونة عن الكلام وتبكي الى القمر والنجوم وحدها. فتصل دموعها صامتة حارة أليمة كالعين في صدرها. وتذهب نفسها في البكاء فينشأ في باطنها عين جارية كالجوازي ينقلبن عيونا وسواقي في اساطير اليونان...

وتتهيأ ميارى للكلام. فيصرف غيلان وجهه اليها وصدره. ويتجمع عليهما نور القمر فكأنه لايضيء سوى غيلان وميارى، وتنطمس ميمونة في الظلام وتبقى على دموعها حديث وحدتها...

وتتكلم ميارى...

ميارى

وقفتَ خلفي إلّي وأنا اليك. وجعلتَ رأسك على كتفي وشعري. وتناظر وجهانا في مِرآة الافق لا يتناهى. وطوّقت رأسك بذراعيَّ، فاذا انا حاملةٌ اناءً خمراً وصنما معبوداً وعالما حيًّا. واذا نحن

أحسن الحسن. واذا حسنُنا نفي لكل شيءٍ سوانا، وانكار ودفع.
وهان عندنا الأمل والعزم والخيال والوهم، وهان في أعيننا الكونُ.
وجاءنا الاحتقار والاهمال والزهدُ، وانتفى الحرصُ، وحلَّ بنا الكبرُ
والطهارة المحضُ. واندفعنا نِثبُ وَثَباتِ الاغوال العواصف.
وطِلْقنا وانكسرت عنّا الروابط. وقامت لنا بدائع الدنيا...

حتى صار عندي للماء عشق ومن الظمأ والقحط ضجَر
وكُرهٌ. وكرهتُ كما كرهتَ اسلامهم وصهبّاء. وجئتُك دَفقًا يُؤق
وعينا تُورَد وجنّةَ خُلدي. على أن كنتُ قبلُ لا اهواكَ ولا احبّك.
وكنت رايتك في صخورك ومعاويلك وحديدك ورجالك وسدّك
عليك العرق كالسواقي، فقلت : انه من جنس من سبقه من
المحاولين العُجَز. رخيٌّ ضعفٌ. لايرى غير الماء للقحط دواء.
وينتصف الطريق ثم يهزل ويضعف. ويَقتُل ولا يُميت. ويوقِد ولا
يُحرق. ويحبّ ولايعبد. ويقول ما يقوله قومه : لاسبيل الى
الخلق المطلق. ثم نظرتك تُرغم القاعدة على الفوضى، والجهاد
على ما لا يتناهى ولا يُحصى. ورأيتك في الجهاد كالمقاتل وحده.
في دغَل من السيوف والاعداء. او كوالجٍ عيصٍ فيه اشتباك
واهدابٌ كثيفة. يتقدّم ولا يُحْجم. ويقطع الا هداب ويعضدُ
سائر السبيل لا تتوقف... فجئتُك واحببتك.

وكنت انتظرك من اقصى مبدأ أيّامي وعُمري. حتى كدت
أنفد. وحتى كدت أقع للشمس أهديها نفسي وجسمي.
وقلت : ليس غيرها جديرا بدمي ولحمي، وليس غيرها يستحق
جسدي الرخام المغري، ولذّتي وألواني وظَلْمي. ولاغيرها أهلا

لعبادةٍ كاهداء بكارتي وغضاضتي وجدَّة جسمي. لان الشمس
بنورها هي الاباءُ والطهارة والنفي والثورة. ولانها تسخر من الظلام
والعقل، وتهزأ بالجوهر والعارض. ويحضرك نورها وهو الخلاء
والغيبة. ولايتجسّم لك وهو الملأ والحضرة. فهو للعدم احتقارٌ
غاية. وهو كمال الخيال والامنية والحُلم...

ثم جئتَ، فنظرتُك. ونظرتُ فاذا نور الشمس خيوط او بيت
عنكبوت يلمع لعيني. فنفضتُه فاسقطتُه كخرِشّاء الحيّة عنّي،
وعرفتُ وجهَ فرحي بوجهك..

وها قد جاءت ساعة السير العظيم والخلق المتين والفعل.
فليدفعنا الى الذروات الجهد والعزمُ ويرفعْنا عن الناسِ. وهاتِ
يدك غيلان نَثِبْ فوق ذرى الارض الرواسي، نأباها ونعلوها ونطِر
بالسدّ كالطير الغَرَاسي.

وتأخذه من يده، فيقوم معها في لين وتؤدة وقد
اكتسى وجهاهما جمالا بديعاً، وارتويا ماءً نضورًا،
وازدادا عظمة في الروح وفي القامة طولا. وتستأنف
ميارى وهي ذاهبة به من يده تحمله كالموجة،
فتقول :

ميارى

سنخلق الرياح العواصف.
ونخلق الرعود الزلازل.
سننشىء السدّ.
وننشىء الحبّ.

غيلان

(كالمُلَمّ به طائف)

نعم. سننشىء ونخلق. سنعلّم هذه الأرض الشجاعة والعقل والبأس والشدة. ونهزّ أهلها هزاً. حتى يتوبوا من الهزال والجبن وكره المياه وحب القحط ويعرضوا عنها. وسنرسل فيهم كلامنا وروحينا سيلا جُحَافاً حتى يعلموا قوّة الروح ويذعنوا إليها. ونستخدم نبيَّهم ورجالهم ونساءهم وحتى صاهبّاهم وما لها من قدرة ونسوطهم كالبغال حتى تدمَى أيدي آلهة الهزال والقحط في إقامة السدّ وخدمة ما اراد الانسان من خلقٍ. وننفخ في كل شيء حياة، ولتقومَنّ الصخور بنفسها فتطير فتقع مواقعَها من السدّ طوع عزمينا. لننفخن عاصفةً هولاً. لننشئن ولنخلقن خلقا. لان القوة والوثبة فينا.

يذهب غيلان وميارى في غبار القمَر المذهب،
وحرير الليل اللذيذ الرطوبة.

ميمونة

(وهي تشيعهما بالنظر وتهزأ مرًا)

سيخلقـان الريـاح العواصف... ويخلقـان الرعود الزلازل...
سينشئان السدّ... وينشئان الحبّ...
فعلى اهل الخيال اللعنة !

وتنفجر ميمونة بكاءً عويلا... ساعة طويلة، ثم
تهدأ فلا يسمع بعدها الا البغل بجانب الخيمة

يخفق باذنيه ويفكر فيما قُدِّر له بين البغال من شأن...

وتتواسع الليلة...



المنظر السّابع

بعد المناظر السابقة باربعة اشهر، في مكان آخر من الجبل. مكان ذي غبار مشتبك كثيف. نباته شائك شَرُود. تمرّ منه العقبة صاعدة في جانب الجبل وتحتها الوادي وفي قعره بعيداً السّد. وحول السدّ قوّات لا تحصى وحركة ودويّ وعمل شديد وجهد عرديد تتراءى للناظر كالاشباح. فيلمح فيهـا جميع القـوم بنبيهم وأصـواتهم وهـزالهم واحجارهم وأيديهم يكدّون ويجهدون، وبقرب العقبة في جوف الوادي السيل منحدرًا كالغيظ، أبيض كالحليب، وفيه صخور كسرب من الحمير تشرب...

الساعـة الزوال. وعلى العقبة غيلان وميمونة يصعدان نحو الخيمة وهما يتحادثان...

غيلان

الليلة يا ميمونة ليلةُ الفوز. ليلة الفلاح والنصر. لقد امرتهم بآخر ما يقتضيه السدّ من الأمر. وسيضعون آخر حجر منه قبل غروب الشمس. وهو أقصى ما رسمت لهم من الزمان ميارى.

ميمونة

(وعلى وجهها مسحة من الشحوب والعلّة)

ان أهل هذا الوادي لمن أدهى ما رأيت من المفسدين الهدّامين. واني لأسمع الجبل يضحك لما غشّوك به من البناء الزائف.

غيلان

(مصرًا)

ميمونة، يا دودتي ويا دائي، ويا صيحةَ الحيرة في روحي، الليلة

الفوز والنجاح والنصرُ. سترين يا ميمونة الليلة...

ميمونة

هذه يا غيلان النهاية، وقد طويتُ طريقي. وإني لأرى الى بعيد بعيني. أرى ويلا دماراً وثبوراً وناراً. فاسمع غيلان نحيبي : كانت ميارى عُتيّك وستكون خسرانا.

الليلة ليلة الخيبة والسقوط هويًا.

غيلان

ليست ميارى عتيًا. هي الكمال والحسن. والكمال لا يُحصى، وأمر الحسْن لا يُعصى.

ميمونة

ميارى غرورك وغيّك، وعقلك فاقدَ الشك والرشدِ. هي خذلانك من الأسِّ.

غيلان

ذُرانا سماء لا عمادَ لها. فما شأني والاسّ يخدع أم يوفي ؟

ميمونة

تريد سدّك على الهاوية : سماءً بلا عماد وفرعاً بلا اصل. وأنّه قد يقوم البناء على الخلاءِ لا الملأ. على الايمان والوهم. كذا النفس اذا ظنّت أنْ طَلّقت الحَد او طلِقت منه. تأبى الاعانة والاسّ...

وهذا سدّك عماده الوهم والزورُ. واصله خداعك للنفس. وان ميارى لغيّك وغرورك. وانها الى ذلك لبهتانُك زورك...

افلا تخشى يا غيلان ان يغلبك الشوق يوما ؟

غيلان

الشوق الى من ؟ الشوق الى ماذا ؟

ميمونة

لا إليّ ولا غيري... الشوق الى الحقّ. يوم يضعف قلبك.

غيلان

اني لنافذ الى ما فوق الحق.

(يضرب على جبهته)

واني لمُرغِم هذا القرح هنا أن يلفظ إمكانَه قيْحَه.

ميمونة

وهذا هو الغرور والغيُّ والبهتان والزّور. فليس في نفسك قرح ولا في القرح إمكان ولا قيحٌ. وليس الا أنك توهّمت القرح والقيح والقدرة على الممكن.

انك ياغيلان خلاء. لا إمكان ولا ملأ.

وان الويل لقريب... قريب...

غيلان

(مصرًا)

الليلة ياميمونة ليلة الفوز. ليلة الفلاح والنصر.

ميمونة

(منصرفة عن الجد الى الهزل)

اذن نقيم مأدُبة... لكن اين لنا بلحم ؟

المنظر الثّامن

غيلان

(مستنكرًا)

لا حاجة الى مأدبة.

يصلان أمام الخيمة

ميمونة

بلى يا غيلان. لابدّ من مأدبة. فانه ما عظم عمل من اعمال البشر الاّ انتهى بين القدح والملعقة... وقد وجدت اللحم : نذبح البغل...

يقفز البغل، فتضحك ميمونة، وتتوارى وغيلان في الخيمة.

بفناء الكهف امام الخيمة، في آخر عشيّ ذلك اليوم، والشمس هاوية.

ميمونة وحدها جالسة هناك تنظر الى جهة السدّ في اسفل الوادي. ونفسها ملاى انتظارًا وخوفا. كالمتوقع زوبعة وشدة تفعم نفسه الحرارة والسحب والظلمة.

وتُسمَع اصواتٌ كأنها خارجة من الجبل، مؤلمة واسعة عظيمة، تغنّي أغنيّة كالعذاب تقع في النفس كالداهية، وفيها روح عظمة سماوية. يسمع الذئب يعوي ثلاثا. نحيبا أنيناً من اعماق الكون... ثم لا يلبث ان يصعد غيلان وميارى متّقدين كالافراح المتراكبة...

وتنتهي الاصوات من أغنيتها الأولى، فتتصاعد شيئا فشيئا بأغنية اخرى كالرقص مستديرًا. فتسف الاصوات أوّلاً كالريح على وجه الرمال، ثم تتعالى وتضخم. ويشتدّ بها الدوران كنشأة العاصفات تعصف عصفاً...

غيلان

ترين هذه القِمّة كالابرة ؟ اذا انتصبت عليها الشمس كطاووس فخور أحمق، فقد وُضعتْ آخر حجرة من السدّ في السدّ.

ميارى

قد انتهى لنا نهار. وابتدأ نهار غيره.

ميمونة

قد انتهى النهار. وابتدأ الليل.

غيلان وميارى

يا للعَمَى ! يا لانغلاق الآفاق في عين الجبن والحكمة !

ميمونة

يا للزّائفين والعُجُزّ ! يا للهلاك والويل !ياللخسرانِ والخيبة !

ترتمي ميمونة فجأة فتقوم قيام العزْم وتقول في روعة

انظرا ! انظرا الجبل !..

ينظر غيلان وميارى فيقع في نفسيها كالصاعقة

انظرا الجلاميد من الظلمات تهتز وتتقدّم. اني لأسمع لحن السواد.

تسمع الحان متلاطمة داوية حيرى كالاعصار والعاصفة

انظرا السماء تداعى وتهوي. كالجسر حمّل فوق جهده...

انظرا الاجسام والاشكال والاصوات تنهار وتدوي...

إنه لزئيرُ الثورة والنقمة.

أنه لقيامُ العواصفِ والزعازع الصمّاء.

وإنه للخسران والخيبة.

ينشأ الظلام فجأة فينتشر. وتعصف ريح من الشيطان كانفاس الزبانية او كالدم والاثم...

وتتقلع الخيمة وتخفق بجناحيها وتطير وتصفّق.

ويقوم النبات والعضاه قيام النبال. ثم تتوالى زفرات طويلة، كأنين في صدر الارض ثقيلة. وينشأ على وجه الارض دخان كاول اللهب.

ثم تجري ريح صِلاءُ كتنفس بركان صاعدة خافضة. ويهمهم السحاب وراء الجبل، ثم يندفع حاملاً على السماء. فتكركره الرياح وتنصبه على دائرة السماء، كغطاء رصاص...

وميمونة وغيلان وميارى واقفون ينظرون والرعب عليهم واقف. وميمونة ترتجف وترتعد. وغيلان وميارى ثابتان كالصخر. وليس الا ان تأخذ الريح شعر ميارى الطويل فترسله في الظلمات كارسال البحر لجسم حسناء. واما غيلان فقائم ثابت لا يتحركُ منه شيء، ووجهه احسن ما يكون وأوسع وأجل وأبدع... ثم تقع أولى قطرات المطر ثقيلة حادّة. فتصفق على الارض كصليل الحديد او كالشتم والصفعة. وتتمزّق السماء جرحاً من النور أحدّ من الخاطر. ويظهر الجبل في ضوء البرق متضاحكا قائم الصدر متهيّئا للتحرك. وتتجاوب انفلاقات الرعد كدبدبة حوافر في السماء. ثم يعدو الرعد الى جميع ارجاء الكون. وينفخ فيملؤها قلوعاً اثقلت ريحاً. وتطلق اوطاب السماء ماءً. ويجتمع الماء والريح والبرق والجبل والرعد والظلمة والغيظ والنقمة، فاذا السماء بسحابها الاسود وحلَّ فيه فحمٌ، واذا الارض والماء والريح عجينٌ والرعد والبرق...

وتبرز من الغيب سواعد وأيد كقطع الجبال، فتدك السماء والارض والنجوم والاجبل ... وتقوم في

الكون جميعا ثورة شعواء حمراء صُلبة. وكأن صوتاً همهمةٌ يرتل : وأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانفلقت جميعا ودوت دويًا. وارسلنا الصاعقة فشقت واودعت حياة حيّة.

ميمونة

هذه العواصف والرعد علينا. أفأنتما خلقتما العواصف أم صاهباء ؟

غيلان وميارى

خلقنا ترياق العاصفة والصاعقة. بنينا. أقمنا سدًّا، الزوبعة عاجزة ان تُفنيَه والصاعقة.

ميمونة

(وقد رأت شيئا على ضوء البرق)

انظرا. انظرا الجبل يتحامل على نفسه، ويقوم ويتحرّك ويتقدّم. انظرا الآفا من الطيور تجرّه من شعره أشجاره سُوداً. الا تريانه يزحف ويكركر رحاه ويطحن السدّ والوادي ؟

يُسمَع دويٌ هول

غيلان

(لميارى)

انظري السدّ يتصاعد ! انظري السدّ يعلو !

ميمونة

السدّ أشلاء. السدّ أنقاض تساقطُ في الهاوية.

ميارى

(لغيلان)

الا ترى سراجاً في منتهى الغاب منيراً ؟ أُنظر اليه يدعونا. زُجَاج صفاءٌ وعزم وأُمنِيَّة. انظره قراراً في الزلازل على الزلازل...

لكن ما اكثر الغاب اشجاراً ! ما أشدَّ الغصون إشتباكا ! وما أشّد سراجنا طريقا...

يأخذها غيلان من يدها

ميمونة

(كالناجية)

انظرا... انظرا أسفل الجبل. تحت السحاب. من النافذة. انظرا الفتحة. انظرا الوهدَ لاشيء فيه. والسكونَ في الوهد والراحة.

غيلان وميارى

(يتعانقان)

لنعلُوَن برأسينا ولنَفْتَحن لهما في السماء بابا.

يرتفعان وقد طارت بهما العاصفة

ميمونة

تنظر اليهما وقد غابا عنها في العاصفة

الآن بلغا المَنية واستقرّا.

ثم تصيح صيحة كتمزيق ثوب جديد، وتنظر نحو الوهد ثم تقول :

الارض ! هذه الارض اكتشفتُها...

وتندفع في الظلمات منحدرة الى الوهد. تحسب أنها تدركه فتلوذ وتلجأ. لكن الوهد يتناءى بعيداً، والأرض تنحفر الى غير نهاية بين يديها...

ويشهق البغل ويصيح رعبا ويضرب بالحافر ضرباً... لكنه مربوط بشأنه، مشدود بصخرة الى الريح والعاصفة والزلزال والبرق والصاعقة...

إنتهى

تأليفاً من سبتمبر 1939 الى يونية 1940

مُلحَق

نظرًا لأهمّية مقدمتيْ الأستاذيْن محجوب بن ميلاد والشاذلي القليبي اللتيْن صُدِّرت بهما الطبعة الأولى من هذا الكتاب (1) رأينا الاحتفاظ بهما في هذه الطبعة لما في ذلك من فائدة لا تخفى وفضل نظر.

- الناشر -

(1) الصادرة عن "شركة النشر لشمال إفريقيا" طبع مطبعة "الشركة التونسية لفنون الرسم" ديسمبر 1955.

- 1 -

«أتشرف بتقديم هذا الأثر الفني الخالد لقراء العربية»
بمثل هذه العبارة الجوفاء تقضي التقاليد أن استهلّ هذه المقدمة.

ولكني حريص على أن أدفع عني - منذ البدء - ذلك «الشرف»، وعن هذا الاثر الفني ذلك «الخلود».

أدفع ذلك الشرف، كي لا يكون غلاً في عنقي وقيداً لفكري وشلا لقلمي.

وادفع ذلك الخلود، لأني أعلم أن صديقي المؤلف لم يقبل على سبك هذا الاثر ونحته، الا «ليحاول» أن يطرح عن نفسه أزمة لا تنتاب نفسا من النفوس دون ان تثير فيها براكين خفية، وتجعلها تتجرع الغصّة بعد الغصّة، وتكابد الظلمة بعد الظلمة. فهو أثر من صميم جوهر مأساة الفكر والحياة. وانه لمن واجب المتحدث عنه أن ينسى المحفوظ والمبتذل والمعاف من الاساليب، ليقابل ما فيه من أنّات وحسرات واندفاعات فاشلة بصيحات العطف العميق ودقّات القلب المتوجع، كاسراً سدود اللفظ الجامد وحيطان العبارة الضيقة، ناشداً أوساع الفكر وأبعاده وأعماق الاحساس المتفجر الحي الزاخر بأقدس ألوان الحياة المضطرمة المتلاطمة مجاريها وتياراتها تلاطم أمواج المحيط الطاهر !...

فهل أنا مخطىء - بعد هذا - ان حرصت على أن أدفع جميع الطرق المألوفة التي يتوخاها - عادة - من يتولون تقديم الأثار ا' دبية لقرّائها ؟

فلأدفع اذاً بعيداً عني جميع تلك الطرق والاساليب ولاحاول تجريد قلمي - ما استطعت الى ذلك سبيلاً - من الالف والعادة حسب تعبير المعتزلة، ولاطلق العنان لفكري لا قيد يقيده ولا مراعاة للصداقة تردعه ؛ رائدي الوحيد أن أقول ما أراه الصواب والحق وأن أعبر عن بعض ما تضطرب به نفسي من شتى الخواطر والآراء عند قراءة هذا «السدّ».

ما تصديت لنقد أثر من الأثار الادبية أو الفلسفية الاصيلة الا ظهر لي ظهور القلعة المنيعة في وجه قائد الجيش الذي يريد اقتحامها وتذليلها. هي تبدو - أول وهلة - عزيزة الجانب برجالها ومستحكماتها وعدّتها ومنعتها، لا يتطاول عليها

متطاول الا قابلته بالسخرية الكافرة وبضحك مدافعها المقهقهة ودمدمة أبراجها العتيدة... الا ان القائد الفاتح لا يلتفت لسخرية الابراج ولا لكفر المدافع. هو ينظر اليها نظرة المتحدي، ثم ينظم صفوفه ويجهّز عدّته ويضرب حولها الحصار، في أناة وفي تبصّر وفي ثقة. ثم يقبل على مستحكماتها يقضي عليها الواحدة بعد الاخرى حتى يكون الهجوم على قلب القلعة...

فليكنْ شأني من هذا الاثر شأن ذلك القائد من قلعته ولانظرْ الى مختلف جوانب «السد» جانبا جانبا حتى يكون من اليسير عليّ - فيما بعد - الاهتداء الى صميم الغرض الذي تدور حوله مشاهد الرواية وحوارها.

ان أول ما يلفت النظر من هذا «السد» لغته والحرية المطلقة التي يتنفسها الفكر في فصوله على اختلافها: هما أمران مستقلاّن في نظر من اعتادوا أن يقسموا الادب الى أدب لفظ وأدب معنى، ولكنهما أمر واحد في نظر الاديب الاصيل الذي ألف ان يصارع اللفظ الى ان يصرعه ويخضعه الى ما يريد من أداء شوارد المعاني ودقائق الاحساس الحي النابض...

تطالع «السد» فتعجبك منه وتبهرك هذه اللغة العربية المتينة التي تذكرك باروع عصور العربية وأفصح أساليبها، تذكرك بلغة الاصبهاني في أغانيه ولغة التوحيدي في مقابساته. وهي مع ذلك لغة فريدة في ادبنا العربي قديمه وحديثه: هي لغة فاتح من الفاتحين في الادب ممن تراهم جديرين بمجد تجديد نظرة الادباء الى شؤون الفن وأساليب البلاغة.

هي لغة المسعدي...

أقول هذا من دون أدنى تحفّظ ومن دون أن أخشى خدش «تواضع المؤلف» لاني مؤمن بأنها تفتح للادب العربي عصرًا جديدا وتربط - فوق ظلمة قرون تقهقر النثر العربي - بين أزهر عصوره الماضية ومستقبله الوضّاح.

تنظر في أخصّ خصائص هذه اللغة فتجد أولا ما يمكن لي ان اسميه «اقتصادها» او «زهدها». فما من عبارة الا ولها معناها الاصيل. فلا زخرف كاذب ولا حشو ولا كلمة تردد الاخرى: وظيفتها في الجملة كوظيفة مقاطيع الشعر او تفعيلاته ان اردت ادخال اي تغيير على ترتيبها اختلّ الوزن وانتفى النغم.

في هذا سحر تلك اللغة سرّ عظيم مفعولها في النفوس: هي لغة الرمز. ولئن

كان هنالك أمر يُغبط عليه المسعدي فهي تلك القدرة العجيبة التي ينفرد بها بين أدباء العربية في العصر الحديث: فهو يعرف كيف ينتقي - لا المعنى الكلي أو المفهوم الجاف الذي يحدّ أمام نظرك الابعاد ويضيّق على فكرك المجال - بل «اللفظ الحسي» ينطلق كالسهم نحو «هدفه المقصود» لا يخطئه، فاتحاً أمام عينيك العوالم الفسيحة، مثيراًفيك زوابع الفكر ومآسي الوجدان. فكأنُ اللفظ - رغم جماله الفني - لم يقصد لحدّ ذاته، بل لغرض آخر أسمى والطف جوهراً... هو كاشارة المنوّم التي يقصد منها احلال ارادةٍ مكان ارادة واحساسٍ مكان احساس وشخصية مكان شخصيّة... هو «رمز» للمعنى او الخاطر او الشعور الذي ما كان ليعبّر عنه الا به... كما لو كان بينهما «مناسبة طبيعيّة» تُكره فكر القارىء على ألاّ يتجه الا الاتجاه الذي اراده المؤلف كي يشرف على ذلك المعنى أو الخاطر او الشعور... دون غيره.

هو اداة الوصل بين المنظور وغير المنظور...

وفي هذا أيضا سرّ ذلك الرواء الشعري الخالص الذي يمتاز به أسلوب المسعدي.

وفي الحق فانه ما كان ليفوز - لولا هذه اللغة الشعرية - باحداث ذلك الجوّ الخيالي الصرف الذي يكتنف «السد» كله. هو جو الاساطير اليونانية وخيالها الباري !...

كل شيء في هذا العالم حيٌّ نابض، وكل شيء فيه ناطق. قوة «الباري» تتجلّى في جميع مظاهره: فالسماء ناطقة بهواتفها، والجبال ناطقة بمنطقها الصامت الذي «يصغر عنده الانسان»؛ وحتى الحجارة فهي ناطقة وان ظنها «العجم» من الناس صامتة (ولعل امتع شيء في هذا «السد» هو الحوار بين الحجارة !...)

ابطال هذا العالم رجل اسمه غيْلان وامراة اسمها ميمونة... وجبال واودية وهواتف وبغل وذئب... والغريب انْ لا غرابة في ذلك ولا داعي للاستغراب: هو الوجود وقداسته وحياته الخفية. هو الوجود قد عاد الى طهره الاول. كل شيء فيه الى «مصيره» ساع، بل كل شيء فيه يغني اغنيته للتحرر من مصيره والاندفاع نحو ضرب من الحياة اسمى واطهر.

فالطهارة هي الجوهر الذي قُدّ منه الجو اوْحيكَ منها هذا العالم. هي الاطار

الشامل للقصة : عصا سحرية اثارته، ويد صناع دفعت فيه برجل وامرأة ليشاركا في هذا «السباق الكوني» نحو الطهر، واحساس فريد عطف على هذا السباق وانصت للحوار الذي دار بين ابطال القصة وتتبع ما كان منهم من اندفاعات واضطرابات نفسية : هذا هو «السدّ» !

وانك لتلقي بنظرة عامة الى الادب العربي كله فلا تجد اثرا واحداً نفذ لصميم الوجود، او قل لصميم مأساة الحياة، نفاذ هذا الاثر الصغير حجماً.. هو من اشد آثار الادب العربي «انسانية». وانه ليدلّ دلالة واضحة جلية على ان مؤلفه قد حاول خرق جميع السدول والاوهام وتفكيك دواليب الحياة ومحركاتها الخفية. حاول هذا الامر في جرأة نادرة وحرية فكرية مطلقة : عُذره (ان كان لابد ان تلتمس له عذراً امام قرّاء العربية) انَّه فرد اراد ان يفهم الحياة وسبب الاضطراب فيها، في صدق ودون تدليس او غش او تعليل نفس...

فما هو نصيب محاولته من النجاح ؟ هل اصاب الهدف ام اخطأه ؟ هنا تبدأ محاسبتي له المحاسبة العسيرة !

المفكرون عديدون مختلفون، ولكنهم موزَّعون بين اسر قليلة هي «اسر الفكر». فالغزالي وباسكال من اسرة وارسطو وابن رشد وديكارت من اسرة ثانية...

ولكن تلك الاسر نفسها يمكن لنا ان نصنفها باعتبار قربها او بعدها من اسرتين رئيسيتين تكادان تكونان كالقطبين في المقابلة والتضادّ.

هنالك اسرة المفكرين الذين يتخذون من العقل او الادراك الصرف وسيلة للمعرفة. ويغلب على افراد هذه الأسرة المنطق وما يتبع المنطق من مزايا وعيوب : جفاف وصلابة ووحدة نظر... وهنالك اسرة المفكرين الذين لا يقيمون للمنطق ومقاييسه ومفاهيمه كبير وزن : يسعَوْن وراء الحقائق، أو قُل الحقائق تسعى اليهم، عن طريق العطف العميق والاحساس المضطرم والهوى الجارف.

تخاطبك الاولى بالمفاهيم والمعاني الكلية والحجج والبراهين العقلية. وتخاطبك الثانية بالاندفاعات والوان الحماس وبروق العاطفة وبراكين الطبع الثائر.

عالم الاولى عالم الآراء المنسّقة، المستنتجة من مبادىء اولية. وقد يكون عالما عاريا، بارداً، جافا، فقيراً، ولكنه عالم الوحدة والوضوح واستقامة الخطوط... لا

يتساكن فيه الا ما ائتلف وتنادى وانسجم !

اما عالم الثانية فعالمٌ خصب ما امكن الخصب، متنوّع ما امكن التنوّع. هو عالم الحسّ وبهجة رموزه، وعالم النفس الصارخة ووثباتها الجامحة. هي الاحاسيس والصور الخاطفة، لها كلّ حين انبثاقها وتلاشيها، فجرها وعتمتها.

تدخل العالم الاوّل فلا يتحرّك منك سوى العقل، ولكن هو الصفاء والانبلاج والطمأنينة. خُطاك فيه ثابتة ثبوت القياس في ظفر استنتاجه...

وتدخل العالم الثاني فيهتز كيانك كله ويرتج !.. هو الحماس يتسرب ويشيع في اعصابك وفي احشائك وينفذ اليها نفاذ الرصاص. هو الشعور الحادّ، وهو الغموض والذهول ما بين الارض والسماء. هو الدُوار، دوار القمم. وهي الرعشة او الشطحة. وهو الصراخ يصّاعد من اعماق الكيان كما يصّاعد عويل الذئب في الفلاة، دالاً على وحشة الكون...

تنصت لاصحاب الفئة الاولى فتجد الفكر الواثق بنفسه يمدّ - متدأرصينا - جهاز علاقاته واسبابه وحباله، ليكبل بها الكون تكبيلا فينقاد له - مكرها او مختارا - انقياد الضاري اذ يسقط في شبكة الصياد. وهذا هو «عقل» الوجود والهيمنة عليه بالفكر !..

وتنصت لاصحاب الفئة الثانية فتلفي العجز وما يدل على العجز : تلفي اللهفة والحرقة والحسرة...

هي أعصاب شُدَّت كالطبل، ونفوس غمرها سيل الحس او الهوى المتدافع المتضارب، فمزّقها فصارت ثائرة مجدّفة. هي «الفردية» في ضعفها وفي حدودها الضيّقة، تصطدم اندفاعاتها بعقبات الوجود وتنظر لنفسها وكأنها «ذرة» من الرمل ضائعة بين الرمال على الشاطىء المترامي، فيتلاشى «مصيرها الفردي» في خضمّ «المصير الشامل»، فتنثني انثناء الغصن أمام العاصفة وتُعول عويل الارامل !...

وبعد فهل أنا في حاجة الى أن أقول الآن ان المسعدي من هذه الفئة الثانية، وان «السد» أثر من آثار ذلك العويل ؟

هو عويل «منغم» ساحر أخّاذ، ولكنه عويل على كل حال. ويمكن لنا - من دون تحامل - أن نجعل لهذا الاثر عنواناًآخر. وقد لا نحتاج الى البحث طويلاً

ولكن لِمَ تُحمّل المؤلفَ مسؤولية حكم ميمونة ؟ لابد هنالك من سبب. وتسائل نفسك من جديد : «ما عورة نفس غيلان ؟»

واذا بسرّ دقيق ينكشف لك شيئاً فشيئا : عورة نفس غيلان هي عورة الانسانية قاطبة، وعجزه هو عجزها، وبطلان مساعيه هو بطلان الحياة وحماقة الحياة العابثة... اذ ذاك تفهم خيبة «السد»، وتفهم أنه رمزٌ لجهاد الانسانية قاطبة، ورمز لخيباتها المتوالية رغم انها لا تنفك تعمل وتجهد لغلاب العدم والانتصار على الفناء. وتفهم أن الانسانية - في نظر المؤلف - حين يختمر في مهجتها «الحلم» وتأبى الا أن تندفع لتحقيقه، وحين يتربع في وجهها السراب وتأبى الا أن تجعل من السراب ماء، فجاجاً انما هي عمياء لا تبصر أن مساعيها باطلة، واضطرابها عقيم، واندفاعاتها خاسرة، ورجاءها في الخلود غرور وسذاجة مضحكة...

يعينك على هذا الفهم سخرية الهواتف بالانسان اذْ تترنّم بهذا النشيد :

أنا الانسانْ..
ما دام الجدُّ
ما دام الجهدُ
ما اشتد العزمُ
وليد النفس
وليد النارْ
لا أبالي...

وتعينك على الاهتداء اليه الحجارة اذ تقول هازئة بالبشر : «هم مفعمو النفوس ايمانا واقداما وحبا للجهاد، وانهم لسكارى... يريدون ان يخلقوا !... انهم لا يريدون شيئاً... انهم يتوهمون أنهم يريدون...» وتزيدك بيانا فتقول : «البشر من عادتهم ان يجمعوا الاوهام والمعتقدات : يؤمنون بالله وبالشيطان، وبالانس والجان، وبالقبح والجمال... وبالعدل وبنات السعالى، وبالقوة والخمر، وبالعمل وتمائم السحر، وبقدرتهم والسدود في الصحاري. انهم لمّامون جمّاعون، باللم والجمع مولعون، كأنهم رواة محدّثون !».

وهنا تتذكر كلام ميمونة، وتفهم قصدها من بعض عباراتها الغامضة غموض سجعات الكهّان والغازهم. تتذكر موقفها من السد حينما اضطرّها غيلان الى

زيارته، وتتبين سرّ اطراقها وسرّ وجومها وسرّ جوابها لغيلان اذ سألها عن رأيها في السد فقالت بعد تردد : «اني افكر... افكر في الصدق، والتجرد، في العراء». وتتذكر بالخصوص قولها لغيلان بعد حلولها بالوادي : حللنا به «حلول الدود بالثمرة. فالثمرة الى التعفّن والفساد».

تلك هي «عورة»غيلان، وتلك هي عورة الانسانية قاطبة. خطيئة غيلان هي خطيئة الحياة اذ جعلت من آياتها البينات الفعل والانجاز والخلق... وما ثورة المسعدي على الفعل سوى ثورته على الحياة. لذلك تراه يعكس الحقائق عكسا غريبا فيسمي الجبن صدقا وعراء وطهارة، والاضراب عن الفعل تحريراً للعزيمة، والسعيَ في سبيل تحقيق سنة الحياة «عجزاً واسلاماً !».

☆ ☆ ☆

هل يجب الآن محو آثار هذا التجديف بالحياة ورفع صوتي ممجّدا مقدّسا للحياة ولآية الحياة : الفعل ؟ لو كان لي اشراق بيان المسعدي، وروعة اسلوبه، واغراء فنّه، وقدرته على بعث الآراء المجردة الجافة جواري ناعمات وحوراًمانسات تثير في النفس ما تثير من صبوة ومن جنون، اذاً لعدلتُ عن هذا «الدفاع» وعن هذه المقدمة الطويلة، ولحررت «سداً» آخر، ولابيت الا ان أقدّر له في الختام التوفيق والفوز مثلما ابى المسعدي الا ان يقدّر «للسد» - قبل تحريره - الاخفاق والفشل...

ولكنّي أظن أن ذلك لن يجدينا ولن يجدي الحياة نفعاً ذلك أنه يكون مجرّد جعل «منطقٍ» أمام «منطق» وعصبيّة «طبع» أمام عصبية «طبع».

أضف الى ذلك بالخصوص أن الحياة تزدري التمجيد ازدراءها التجديف، أو قل ان التجديف والتمجيد لديها سيان. أعني أن «ناموسها العادل» أو «سنتها الصارمة» (والتعبير ان عندي مترادفان) تستخدم التجديف مثلما تستخدم التمجيد او التقديس وتتخذ منه سلما للارتقاء. وقد يكون التجديف - احياناً - أجدى لها من التمجيد، اذ يمكّنها من تحطيم «قيم» كانت صالحة لها في بعض الاوقات ثم غار رحيقها كالماء في الرمل فاصبحت فاسدة عقيما... وتلك هي سنة صعود الحياة نحو النجوم...

ومع هذا فاني لا اريد ان أختم هذه المقدمة قبل ان أتعرض «للموضوعات»

الفلسفية التي ينهض عليها «سد» المسعدي. فجميع ما يثيره المؤلف – على لسان أبطاله – من مشاكل حول الايمان والصدق والعراء والتجرّد، وحول الفعل والحياة والفكر، يحكي طيران سرب من الفرّاشات الزاهية الالوان، الجذّابة المغرية. ولكنه يبعث فيك نوعاًمن الخنق عليه شديداً. هو يثير المشاكل ولا يحلها، وان حلها فباستناده الى «مبادىء» او «مقدمات» أو «موضوعات» قد لا يُسلّم بها دائما، وباستغلاله اشد الاستغلال لحقائق رائعة كيقظة الفكر والطهارة والصدق، مع فهمها فهماً خاصاًفيه قسوة وفيه تعسّف وغلوّ...

من تلك «الموضوعات» ظنُّه ان الحياة اضطراب باطل وان محاولات الانسانية فاشلة... لا محالة. صحيح أن الزمن يطوي الحضارات الانسانية : فقد طوى حضارة بابل وأشور ومصر الفراعنة. وطوى حضارة اليونان والرومان وطوى حضارة العرب... وانه لطاوٍ حضارات أخرى.

الزمن تيار جارف قاسٍ... لا يرحم. وحق لميمونة – من بعض الوجوه – ان تقول قاصة رؤيا رأت فيها «السد» رمز جهاد الانسانية قاطبة : «نظرت ويلاً شديداًوهولاً. رأيت الماء غائراًفي الهاوية، أصواتا مشتبكة كأنها أصوات الهاوية، واقعا فيها كالحلم او الخيال او الامنية تقع في الابد فتغيض فيه... ولا يرده السد. ولا يحبس منه شيئاً. رأيت سداًمن جماجم موتى قد رصّفت اكمل ترصيف... رأيت الماء جاريا من الجماجم والمناخر كالمخاط او كالغراء... ولم أرهولا اشد من بقبقة تلك المياه في جماجم الموتى وصرخت روْعاً...»

كل هذا ينمّ عن احساس بالوجود صحيح من بعض الوجوه : جهاد الانسانية بناء هائل، ولكنّ هذا البناء المرصوص انما رصّ بالدموع وبالعرق الصبيب وبالدماء، وبجماجم موتى الاجيال. ولكنْ من الباطل ان يقال ان «سدّ» الانسانية لا يحبس ماء... هنالك صراع بين الانسانية والعدم، بين الحلم والواقع. وهذا الصراع هو مجد الانسانية ومجد الحياة، وهو ظفر الانسانية وظفر الحياة. ولئن شمل العدم هياكل الحضارات وجماجم موتاها وجثثهم الهامدة الباردة، فان «ارواح» تلك الحضارات و«عرائس افكارها» باقية، حية نامية بارية ! وما اظن ميمونة تقول لغيلان هذا القول : «أومن... بالمرمر الصلب والخط المطلق وعود الحياة اليابس» الا لان «روح» الحضارة اليونانية في قلبها قد حلّ. ان في نفسها لشوقاًمتلفاً الى ذلك

العهد البعيد القريب الذي وُجد فيه من آنكبّوا على المرمر الصلب وعطفوا عليه العطف العميق ناشدين الكمال في الجمال، والاطلاق في الخط، والانطلاق والحرية في المادة، وفي الوجود كله النغم !

ولئن كان هذا حقًا – وانه لحق مبين ! – فجهاد الانسانية ليس بباطل، ومحاولاتها ليسَت بفاشلة. هي خالدة خلود الجهد، وهي خالدة خلود الدأب الصبور. وحق للانسان ان ينشد، دون ان يخشى سخرية ساخر او ازراء زارٍ، هذه الابيات :

ما دام الجهدُ
ما اشتدّ الغرمُ
وليدُ النفسِ
وليد النارْ
لا أبالي

وحق له الاّ يبالي : فان في الجهد لنشوة، وان في الجهد لقوة، وان في الجهد لظفراً.

ولا أنكر انّ بطل الفعل يلاقي – احيانا – «ساعات هولاً» لما فيها من يأس وقنوط، هي ساعات يبدو فيها العالم كالبُحران، او كحشرجة المحتضر، هائلة، مفزعة، موحشة، لا نغم فيها ولا رواء شعر. هي ساعات انكسار، وساعات انهياض الاجنحة وانسداد الافق ... ولكن ما هي الا فترة ! هي فترة اللغوب، وفترة «انحلال فتل الساعد» أمام ازدحام العقبات وتعدّد الثنايا ومفاجآتها المرّة؛ هي فترة «ابتعاد الغاية بعد ان «ظنّت» قريبة... ثم اذًا بالقوى تتجمّع، واذا بها تعود متراصّة تراصَّ الحديد، واذا بالغيوم تتبدّد، واذا بالنور يعود الى البصر، واذا بالحياة تبلغ الاستجمام، واذا بالعزم يضطرم كما كان يضطرم من قبل، واذا بالايمان بالفعل يشعّ كما كان يشع في البدء : «كاملا، مطلقًا، ليس فيه ثلمة ولا تصدع». واذا بمرحلة الجهد تُطوى، واذا بمرحلة اخرى تنشر، فتدعو وتغري ملحة في الدعوة وفي الاغراء... ومن جديد يكون الاندفاع، ومن جديد تكون صبوة النار، صبورة النور !....

ولكن أنّى لبعض «المفكرين» ان يفهموا هذه الحقائق ! كثير منهم يقبلون على

«الفعل» يأساً وقنوطاً.. لا اقداماً وايماناً يرومون من الفعل السلوان، ويرومون منه النشوة، وفاتهم ان الفعل كالمرأة لا تحبوك «كامل» عطفها و«ملء» انوثتها، الا اذا قدّمت لها «كامل» حنانك و«ملء» رجولتك. ويخلف في وجههم الفعل كما تخلف السحابة الكاذبة، ولا يقدّم لهم الا زائف اللذة مقابل ما قدّموا له من زائف الايمان. فيظنّون ان الايمان بالفعل لابدّ أن يكون عمى الفكر وذهول الصوفي... لذلك تراهم لا يتصوّرون الفكر الا عجزاً وقعوداً، ويسمون ذلك «يقظة حقا وصدقا وعراء وتجرداً». ولا يتصوّرون الفعل الا ضرباًمن ضروب الغباوة او فراراً من الانتحار. وينعتون ذلك بتعليل النفس او العجز او الاستسلام لبلادة الغريزة وبطلان الحياة... انفصمت عند هؤلاء الروابط بين الفكر والحياة، فصار للفكر سُنّة وناموس وللحياة سنة وناموس، وكان بين السنتين وبين الناموسين تضادّ ونفور.. وكان ما لابدّ أن يكون : الحرص على ان يكون الفكر نفيا للحياة وتحرّرا من قيودها : وهو أمر يمكن ان نسميه : «السرطان الفكري».

وبعد هل يمكن لي الآن أن استردّ باليسار ما دفعته عن نفسي باليمين في مستهلّ هذه المقدمة من الشرف الذي ينالني من هذا التقديم ؟

اني اطالب الآن بهذا الشرف لانه لم يعد مخطراً عليّ كما كان مخطراً في البدء... واني لحريص على ان أعرب عمّا تضطرب به نفسي من دواعي الغبطة والسعادة حين أرى الادب العربي يسير بخطى ثابتة نحو «الشؤون الجوهرية» ونحو التعبير الصادق عن أصدائها الحيّة الداوية في النفوس !

تونس — محجوب بن ميلاد

استاذ الفلسفة بدار المعلمين

- 2 -

كتب «السدّ» ومؤلفه لم يجرّب بعدُ العمل والفعل، ولم يكن يأمل اذ ذاك ان يحين له العمل يوما من الايام. ومع ذلك فان الفعل هو المشكل الاساسي من هذه الرواية.

وتنتهي القصة فتسفر عن هزيمة غيّلان وفشل الفعل. ثم ان المسعدي يزج بنفسه بعد ذلك في ميدان العمل وما يزال يكافح جزيل الكفاح. ولكنّ عطفا خفيا على غيّلان بقي متأصلا في نفسه، وكأن الحوار مستمرٌ بينهما.

في هذا وذاك ثنائية وتناقض يجعلنا نعتقد ان «السدّ» قطع عن مؤلفه عقبات النفس ونهج له من حيث لايشعر وكان له بمثابة الدواء - الى حين ؟

وكُتب «السد» في فترة جدب كمروج الحلفاء تنبسط لقيظ الشموس. فاطُّرح صاحبه الاعراض وهتك الحجب ولمعت فيه نار الفكر القاتمة. فاذا المشاكل تقوم لديه جوهراً صلداً محرقا، لا تبقي ولا تذر. ولكنه لم يستطع ان يقتل في نفسه الشوق الى «الماء»، واذا الدنيا توضع فيه من خلف، واذا سلوكه هو «المستحيل يُرغم على الامكان.»

وهذه الثنائية قائمة في قلب الحوادث النفسية من هذه القصة وهي التي تبعث فيها القلق والحرج وتوجّهها نحو المأساة : فغيلان ثائر على واقع يريد تحويله وخلقه من جديد؛ ولكنه يؤمن في اعماقه بالخيبة والفشل، وأن الجهود الانسانية «لا تستطيع لسنة الله تبديلا»... وينهار السد...

تبدأ الرواية عند وصول غيلان وميمونة الى سفح «جبل اخشب غليظ»... آخرَ عشيّ. ويدور بينهما حوار بسيط مرصّع بكلمات تشير الى ابعاد في النفس وتهيء الجو الروحي؛ ككلمات الرحيل ينقطع، وغروب الشمس يوافق الوصول، والنزول بالخيال... الخ... ويكشف هذا الحوار عن طبيعتين متقابلتين : ميمونة ترى المسموعات؛ تنظر الى الجبل فتسمع صوته ينذر، وتؤمن بالغيب وتوجس في الكون انذارا. اما غيلان فساخر منطقي الكلام، يرى ما يُرى ويَسمع ما يُسمع، ولا يخلط بين مُعطيات الحس المتباينة ولا يقول الا بالواقع. ولكنا نحس وراء هذا التصميم الهادئ بطائف من الارتباك ينازع نفس غيلان فيتحاشاه ويريد ان يلقيه

وراء ظهره ويتناساه في زوايا اللاشعور، كالمتطير يأبى ان يثبت ما تكره نفسه. وكأن ميمونة تتكلم بما لا يريد هو الامعان فيه : فهي لا تؤمن بانتهاء الطريق؛ وهذا القرار الذي يدّعيه مكذوب عندها، تشبهه بحلول الدود بالثمرة
– والثمرة الى التعفن والفساد – وتنسبه الى الخيال الجرّاف يأكل البشر...

وفي حنايا الكلام العابث يواجهنا «القلق» ينخر النفوس، ومسحة من «الاشكال» تعلو الواقع العادي وتثقل وطأته وتصرفنا الى الغيب.

وهذا الاشكال في عالم المسعدي سرّه أن الاشخاص يعيشون موزّعةً نفوسهم في الآن نفسه بين الواقع والغيب. بل ان الواقع لا يستمد معناه لديهم الا من هذا الغيب المسلط على ابصارهم. غيلان لايرى الا السد، يحمله بين جنبيه ويسعى الى تحقيقه في وله العاشق الهيمان. وميمونة لا ترى الا الوبل والثبور يتمخض عنهما المستقبل. فالكون مكتظ لديهما حامل، يثقله المخاض وتقطعه الولادة.

وليس احب الى النفس ولا ادعى الى الشغف من هذا الانكشاف التدريجي لطوية هذين الشخصين. فنحن نتسرب الى معرفتهما قليلا قليلا في شَعب الحديث، ونشعر بان معرفتنا لهما تزداد نصاعة في كل حين، من دون ان تمحّي تلك الكثافة النفسية التي يتمثل فيها لغز الانسان الحي لا تحده معرفة ولا يلمّ به تقدير.

ومن اول القصة تتنزل المشاكل في المحيط الروحي الديني. وهذه النزعة تلوح في بعض الفقرات العابثة من الحوار. تقول ميمونة : «تنقض الاعباء ظهور العباد فتمتد الاعناق وترتفع الابصار والرؤوس وتكون الصلاة ويكون الدعاء.» تقصد ميمونة أن الصلاة تنشأ في قلب الانسان حين تداهمه المصائب، فالصلاة صلة العبد بخالقه عند الالم والشدة. هي استغاثة الضعيف بالخالق. وتقوى النبرات الدينية في القصة تدريجيا وتتضخم حتى تصبح وجها من وجوه مقاصدها ولونًا من الوان الغيب فيها. يقول مدين في «مولد النسيان» (1) انه ابطل كل شيء لانه رأى «الآلهة والنفس والاديان والفكر والعلم، كالسدود تقام وتجعل لها الحكمة والعقل أساً، فتنتصب واقية الوادي من السيل والنفس من الجنون». فأزمة «مدين» ثورة على «السدود» وعلى الحواجز والواقع.

(1) قصة للمؤلف نشرت تباعا في مجلة «المباحث» بتونس.

هو يريد ان يتحرّر من كل القيود التي تنحصر فيها حياة الانسان عامّة. وكذلك غيلان : يدعو ميمونة الى «الكفر بالنواميس والحدود والعراقيل وانكار العجز والاسلام». وهناك كلمة لم يتلفظ بها غيلان، الاّ أنها تهيْمن على وجوده وتوجّه سلوكه : هي كلمة الموت. فهو يجهد ان يتغلب على منزلته البشريّة ليفصم قيودها ويتجاوز حدودها. ومأساته انه ميت لا محالة، يعلم ذلك ولا يستطيع ان لا يفكّر فيه. وهو يتخذ الفعل اداة تكسيرِ لهذا القيد المحتوم الذي يشوّه القوة، ويزيّف الخلق، ويُحجّر الوجود. ومن هذه الوجهة فسلوك غيلان مغامرة خاسرة من اولها – وهو يعلم ذلك – الاّ أنه يأخذ على عاتقه ان يناضل وان يصارع.

وليست هذه الثورة منبعثة عن الحاد وتعطيل؛ بل هي ثورة على الخطوط الجامدة والمرمر الصلب الذي يخنق القوى الفردية ويزيّف الوجود. التّوْق الى المُطلق هو جوهر هذه الثورة الفتية. ومعناها الصحيح تحطيم السدود، ونزع الاعراض، والتجاوز نحو المستحيل.

وثورة غيْلان هذه رغم صيغتها الفلسفية – الميتافيزيكية – تتنزّل في الواقع الاجتماعي. فغيلان رافض لعالمه الذي يعيش فيه هو ومواطنوه، يريد ان يغيّر منزلتهم فيه، بأن يغيّر القِيَمَ التي عليها يشيدون حياتهم وبها ينظرون الى مستقبلهم. وهذه القِيَم روحية «واقتصادية» معاً. فالحياة التي تفرضها صاهباء على عبادها تقوم على القحط والجفاف وليدَي الحرارة والقيظ، والنار هي القيمة القدسية التي بها تطهرُ حياةُ «المؤمن» من ميوعة الماء وأدران الرّطوبة. وصلاة المتعبّدين المبتهلين لصاهباء ان يستلقُوا على ظهورهم كاشفين عورة اجسادهم لِلفْح الشمس الزكيّ، حتّى يضربها القيظ، ويجفف ندي نزواتها، ويعيد اليها صلابة المرمر او براءة الرمال الصادئة. الطهر اذن في عالم صاهباء بالاحتراق وبأن يعود الحي فحما بريئا من خلجات الحياة. فيحترقُ الجسم، ويحترق الزمن، ويكون سُبات الصحاري العارية الى ربّها. الطهر براءةٌ من «الماء» وانصرافٌ الى غيب مُحرق كالابد، هو نفيٌ للحياة والحركة.

ويقدم غيلان «البلدة»، ويرى ما يقاسيه الناس من زيفٍ وباطل، وينكشف له ان حياة ذويه انما هي موت بالمعنى قبل الحسّ، وأنها انتظار للهلاك؛ فتقوم في نفسه سوْرة التحطيم والنقض، وتتأجج في صدره الثورة على الاساطير، ويعتزم ان يكون

نبيّ السعة والنعمة، وأن يشيّد في هذا الوادي البلقع «سدّ مأرب» الذي اعاد الى الارض خصبها وبهجتها. فيتصدّى لمقاومة الآلهة وصرف الناس عن «الغيب» الذي يـأكل من ارواحهم ويطعم من وجودهم. ويكون تمرّده اذ ذاك شبيهـا بتمرّد «بروميثي» الذي سرق من الآلهة سرّ النار وعلّم الانسان مالم يعلم. فقد اضطلع هو ايضا بأعباء صراع هائل لينقذ الانسان من القحط والعبودية، ويصرفه عن الحلم بالابد الى الواقع.

ولكن ميمونة تخاف على زوجها عاقبة هذا التمرد وهو عندها مهدِّم للواقع، يكرهه، ويحب الخيال ويعيش في الحلم؛ وترى أن زوجها يتقحّم على مغامرة هائلة سوف تكون عليه وبالا. ذلك أن ميمونة امرأة الممكن تحب الحياة كما هي: تأنس الى الكوْن، وتلتذ بالوجود على علاّته: «هذا الفجر يا غيلان، وهذا النور كاشهى الطعام...». وديعة «راكنة، تختلج رِقّة» وشهوة. فهي تعيش في الحاضر وتضارع الواقع، بينما زوجها مندفع، كالوتر المشدود، نحو المستقبل.

وليست ميمونة فاقدةً لليقظة التي تهزّ غيلان وتبعثه على الصراع. وانما هي قـابلـة للقيود، مسلمـة الى الاقـدار، واقعـة الى العـالم، راضيـة. تنفي الحركـة والاضطراب، وتخلص من كل زمان، تنعم باطمئنان «بوذا» وايمان الانبياء، فهي عين القرار[1].

وعلى نقيضها غيلان. فهو الارادة تتلظى: يريد ان يغيّر «كيانه» بتجاوز الحدود المفروضة عليه – اي في الحقيقة، بنفي هذه الحدود. فميدان الفعل عند غيلان هو العالم الخارجي الاّ أن هدفه البعيد هو التغييرُ من الكيان الذاتي الباطن. ذلك أن غيلان يريد نفي ضعفه ورداء عجزه بالخلق الذي يمنحه كمال الآلهة. وهذا الخلق أساسه الارادة – وهي جوهر الالوهية.

وبـذلـك يظهر ان غيلان وميمونـة يمثلان موقفين من الحيـاة على طرفي نقيض: ميمونة شرقية تذعن لسنة الكون، بينما غيلان ينتسب الى «نيتشة»: هدّامٌ مقوّض، يسمو الى الخلق.

(1) انظر قصة «المسافر» للمؤلف.

وبذلك ايضا يتّضح المعنى الحقيقي لسلوك غيلان. فكلٌ من غيلان وميمونة متعلق بالواقع. الاّ أنهما لا يتفقان في فهم الواقع: ميمونة تحب الواقع الحاضر وغيلان يتوق الى واقع خيالي، لمّا يدخُلْ في حيّز الكيان، فهو يروم انشاءه. الواقع اذن بالنسبة اليه «قيمة» عليه أنْ يحققها. ولكن شأن القيم ان تكون جذوةً من نار، دوماً يهدف اليها الانسان من دون ان يتصل بها كامل الاتصال. والمرء الذي يسعى وراء «القيم» شبيه «بدون جوان» يقضي حياته في طلب النساء، ولا يستطيع ان يتقيد بواحدة منهن. كلاهما نهم جرّاف، منزلته التجاوز؛ وكلاهما يهدف الى سعادة الهية لا طاقة له بها، ولا سبيل اليها: وهي السعادة التي تكون بالتئام الزمن، حاضره ومستقبله، في آونة الابد.

يقول غيلان متحدثا الى ميمونة عن رغبته تلك: «ان من بين الساعات لساعة يا ميمونة... ساعةً يتصور فيها الممكنُ بصورة الكائن الواقع دون ان يتقيد بقيد ولا يُحد بحد. وينقلب فيها الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد اشد من كل حديد وقوة: هي ساعة اقصى الصعوبة. وانها لساعةٌ اعظمُ من صاهباء وأعلى، اعظم من السماء وأعلى وأعظم من جميع الآلهة وأعلى. انها ساعة الانتهاء، ساعة تمام الخلق.»

فعملية الخلق تُوقد في نفس غيلان نشوة وجودية شبيهة بشطحات الصوفيّة. والحق ان غيلان ينظر الى الخلق والانشاء نظرةً صوفية، ويعتبر أن حياته ارتقاء غير محدود نحو المطلق. لذلك يكره الحلول والاستقرار، ويكره «البيوت الثابتة لا تنتقل ولا تتحرك»، ويكره ان تذهب مهجته في ميمونة وان يرضى بها واحةً وقراراً: «لئن اكتفيتُ بكِ فاكتنفتني اني اذن لجبان... وقد حذّرتُكِ ان تكوني ظلي وبرودتي ونهاية طريقي».

فغيلان يعتبر أن حياته طريق، ويكره ان تكون لها نهاية لان الوقوف عند «النهاية» جبن. الحياة عمليّة خُلُقية في جوهرها، ولا تكون الحياة صحيحة شريفة حتى تكون مغامرة تضطر المرء الى الخلق والتجديد. فاذا كان المرء في مأمن من الخطر جمد سيل الحياة وتحجّر الوجود، وجاء الزيف والكذب، وجاء الخوف.

ونرى بذلك ان موقف غيلان من ميمونة كموقفه من صاهباء: «خطأ هما انهما ثابتتان لاتنتقلان ولا ترتحلان». وينضاف قيد جديد إلى القيود التي ثار عليها غيلان

اول أمره : المرأة تحُول بين المرء وبين الكوْن.

على أن لميمونةَ في حياة غيلان منزلةً خاصة. هي من تلك النساء اللاّتي يجدن في الحب قبساً يضيء الحياة ويجعلها سعيدة مرضية. فلا رغبة لها سوى العيش قرب غيلان. اما هو فمن صنف الفحول دوْماً ينشنون مستقبلهم، دأبهم المغامرة وغايتهم الخلق. وهو بحكم نفسيته لا ينظر الى الواقع الا بقدر اتصاله بعمليّة الخلق. فالاشياء عنده كالأدوات يستعملها لاغراضه ولا وجود لها بنفسها، ولا يلتذ بقرارتها ولا يدعها تتسرب اليه فتُفعم نفسه وتعمُّها. وكذلك الاشخاص عامّة: يراهم ولا ينظرهم، ويعرفهم ولا يعلم دخائلهم. اما ميمونة فهي متيقّظة الى الواقع اشد اليقظة، ويقظتها ذهنيّة حسّيّة عاطفية. فهي تحيا الكون وتستبطن الاشخاص، ولها ذلك اللطف الحدْسي النافذ الى سريرة الاشياء : تتحدّث عن زوجها فتنفذ الى أقاصي نفسه وخبيء نزعاته، فاذا هو عورة لديها مفضوح. واذا السدّ غشاء يتستّر وراءه غيلان ويخفي به عجزه ويلوذ به من معاينة الحقيقة؛ واذا عورة غيلان عجزه يحاول اخفاءه – وتكتسب كلمة «السد» هنا معنى جديدا : هو السد الذي به يدفع غيلان عجزه ويأسه وآلام منزلته الانسانية : «وما احتاج الى سد الا من خشي التجرد وجبن عن الصدق والعراء... انظر سدَّك كالغطاء يستر عورة نفسك ويخفي علتها ويوهمك القدرة ويستر العجز.»

وميمونة تعيش في الحاضر، والاحرى أن يقال انها تودّ ان تعيش في الحاضر، لان غيلان يصرفها عنه كل حين ويشوش تلك الدعة التي تصبو اليها. فهي ايضا كالمسافر يتوق الى الواحة ولكنها سراب ما ينفك يبتعد. وجمال ميمونة انها تتوق الى حياة طبيعية، خالصة، تزول معها الحواجز وترتفع الحجب – وذلك ادبيا وماديا. فهي تكره تلك المشاكل التي يتخبط فيها غيلان. وتلك العقباتُ التي يحب غيلان الامعان فيها، تمقتها هي وتعتبرها ضربا من الزيف والعجز تود ان تركن الى «زوجها» عارية النفس والجسد، لا عورة ولا باطل حياء، وان تقضي اليه يومها الضاحي، تنعم بسعادة الروح والجسد متفقين ملتئمين :«لو سألتُكَ يا غيلان ان نبقى يوما بالكهف وان تنزع الثياب وأدع الثياب، وان نقضي معاً يوما عاريا خالصا طاهرا لا يفصل بيننا كلام ولا حركة ولا ثوب، وأن تحبّني ولا تكلّمَني، واحبّك ولا اقبّلك، وتمسّني ولا تختصّ بلذة، وألبسك فلا امتاز عنك باحساس...»

السعادة الانسانية عندها موقفٌ ونظرةٌ الى الوجود، لا نتيجة عملٍ وفعل.

وكل ما يحدو بغيلان الى الفعل المرهق، ويجلب اليه الالم والشقاء، يمكن ان يحوّل الى اسباب متعة باطنة : «امكاناتك يا غيلان، أعلم أنها بديعات نفسك وأنها العدم يتصور لك...».

لكنْ كلّما تحدثت ميمونة الى زوجها هذا الحديث عيي عن ردّ الجواب وكأنّ كلامها نفذ الى اعماق نفسه كالنصل. وكأن ميمونة اذ ذاك وجهٌ من وجوه غيلان، فيها تجسمت حيرته وشكوكه. وما الصراع الجاري بينهما الا اشارة الى ثنائية خفية تقطّع احشاءه. فميمونة اذن فلذة من وجوده، و«صيحة الحيرة في نفسه»، وصوت الواقع الذي ثار عليه فرتج صوته وشرب على شفتيه الكلمات.

وهي في الآن نفسه ضميره الواعي، و«العين» التي تنظر اليه من بُعد، فتحكم بانه من اهل الخيال الكافرين بواقع النعمة وآلاء صاهبًاء : «فعلى اهل الخيال اللعنة».

ويسكن هذا الحوار المحتدم بين غيلان وميمونة ساعةً، ويخلفه حوارٌ من نوع جديد بين حجرات ثلاث. وهذا الحديث يشبه ما ينسبه ادباء اليونان في مسرحياتهم العتيقة الى «الاصوات» (chœur) تعبّر عن نظرة مجردة الى حوادث المسرحية. فهذه الحجرات لها الى الاشخاص – والى البشرية عامة – نظرة اهل «الشعرى» كما يقول الاوروبيون. فالناس لديهم أقزامٌ يزحفون على وجه الارض كالحشرات، مائعة اجسادهم، فاترة قلوبهم، مسترخية أعجازهم؛ واذا اعمالهم غائصة في النسبيّة الموبوءة : حركة واهتزازٌ ولا معنى، فهي ضرب من الجنون. وهذه النظرة ليست بقاصرة او ناقصة، بل هي نظرة الابد الى اعمال البشر. فهي نسبة اعمالنا الصغيرة الحقيرة الى الابد السرمدي. وهي التي تعرّف سلوك البشر احسن تعريف وانفذه : «يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا العجز». وكأن هذا الحديث الذي يدور بين الحجرات تفسير لما يدور بخلد ميمونة : عمل غيلان عمل «ميتافيزيكي يريد ان يُخْرج الانسانَ من العجز الى الانسانية الكاملة، اي الفعّالية الحق. ولكن غيلان لن يستطيع الى الخلق سبيلا، لانه لن يخلق الاّ الخيال والوهم. وهو عاجز عن ان يخلق العاصفة والرعد والزلازل والبرق. فالمعيار الحقيقي للخلق هو الكون – وغيلان لا يستطيع مضاهاته بحال. فالعجز اذن جوهره. وهو الى ذلك كائن رجيم، لانه أراد ان يزاحم الآلهة فيما اختصّوا به دون غيرهم ألا وهو الخلق. «وقام الكون فسبّح باسمي اني أنا الخالقة الربّة.»

قد يُخيّل الى القارئ بعد هذا التحليل أن عالَمَ المسعدي عالم الخيبة والفشل، عالم يتجلى فيه عجز الانسان وبطلان محاولاته الشيطانية.

يجب ان تصوَّب هذه النظرة باعتبار رئيسي : هو ان عالَم المسعدي ليس بعالم استسلام، بل هو عالم ثورةٍ وطلب، ومحاولةٍ وعلاج. ولئن انتهت ثورة غيلان بالفشل والهلاك فلقد حاول وصارع. والكفاح فضل الانسان وشرفه الاسنى.

فعالم المسعدي اذن عالم «انساني»، يُشيد بقيمة الانسان، – مع العلم بان اعماله محاولة مآلها الفشل، وخاتمتُها الموت، الفناء، العدم...

فهل يجب حقاً ان نيأس من الانسان ؟ ومن اعماله ؟ لا أظن. هذا العالم القاتم في ألوانه، المظلم في معانيه، يشهد بأنه ناقص مفتقرٌ الى ماسواه. وهذه «المحالية» التي يصطدم بها الانسان في حياته، يمكن تجاوزها الى احد منقذين :

يمكن ان يتجاوزها الفرد الى حدْس صوفيّ من نوع ما ذهب اليه الغزالي : هذا النور الذي يُقذَفُ في الصدر وبه تعود الصحة وتزول العلّة.

ويمكن ايضا للفرد ان يتجاوز جحيم منزلته الضيقة الى فسحة الامل الجماعي. تقول احدى الحجرات : «هؤلاء الغرباء أنفسهم يطلبون، لانهم لا يعشقون غيرها... ولا بهم علةٌ غيرها ولا باطن داء... لذا ابتدع البشر المرآة».

فعجز الانسان راجع اذن الى تعلقه بنفسه وتمسكه بالانا وغرقه في صورته التي تؤديها له مرآة ضميره – كغرق «نرجس» في مياه النهر السحري. فاذا تطهّر من أدران جملته وكدر هواجسه، وتيقظ الى ما حوله، ونسّق عمله في كتلة من الجهود وأشاعه، نجا وسلم، وارتدّ اليه الوجود صحيحا.

وبعد فان من خصائص الادب الكبير ان يعبّر لا عن مشاكل الفرد فحسب، بل عن حقيقة مأساة جيل بأسره. ومأساةُ غيْلان في الحقيقة مأساة جيلٍ كامل من شباب تونس في اعوام ما قبل الحرب الاخيرة. طغت عليه نزعةٌ من نزعات الفكر الغربي تردّ مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية، وتحصرها فيها، ولا تطلب لها حلاً الا في نطاقها. فتسرّبت اليه قيَمُها العاتية وصلفها الرومنطيقي الوهّاج. فشوّشت دواليب في نفسه، واشعلت في قلبه الحيرة، فقطعته عن أهله، واستأصلته من ارضه. ثم اذا هو يتساءل عن قيمة سلوكه، فيعود الى اهله «كالمسافر» الغريب

يسألهم عن سرّ موقفهم من الوجود وفهمهم للكون، ويحاسب نفسه.[1]

السد اذن مرحْلةٌ – حاسمة – يجب تجاوزها. لابدّ للسدّ ان ينكسر – بين الفرد ونفسه، وبين الفرد وجماعته. ولابدّ من مواصلة الطريق.

اما السؤال عن الطريق ما هي واين تنتهي، فلا معنى له. الانسان ينشىء مستقبله ويدحض التوقع. بذلك يمتاز وتلك معجزته.

تونس، افريل 1954

الشاذلي القليبي
الأستاذ المبرّز في اللغة
والآداب العربية

(1) راجع قصة «المسافر» للمؤلف.

الفهــرس

ـ المقدمة .... ص 7
ـ المنظر الأول : .... ص 43
ـ المنظر الثاني : .... ص 67
ـ المنظر الثالث : .... ص 73
ـ المنظر الرابع : .... ص 83
ـ المنظر الخامس : .... ص 97
ـ المنظر السادس : .... ص 113
ـ المنظر السابع : .... ص 137
ـ المنظر الثامن : .... ص 143
ـ مقدمة محجوب بن ميلاد .... ص 153
ـ مقدمة الشاذلي القليبي .... ص 163